

فرديناند أويونو
الشيخ والوسام
رواية
ترجمة: ممدوح عدوان



مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الشيخ والوسام

رواية مترجمة..

الكاتب: فردينالد أويونو.
ترجمة: ممدوح عدوان

تقديم..

ستفاجئك هذه الرّواية قليلاً.

فبعد أن تنتهي من قراءتها لن تستطيع أن تحكيها. الحدّ الأقصى الذي تستطيع أن تفعله هو أن تحكي بضع جُمَلٍ عن حدثٍ فيها.

وذلك ليس لأنّها تعتمد على الاستطراد النّفسيّ، أو الذّهنيّ، أو على تيّار الوعي، بل لأنّها تعتمد على الاستطراد الاجتماعيّ، وعلى تيّار حركة النّاس.

الكاتب من الكاميرون، والحدث بسيطٌ يدور في مجتمع التّمييز العنصريّ الذي يتحكّم فيه البِيض، وعندما تنتهي من قراءة الرّواية ستكون قد تعرّفت إلى أرياف هذا المجتمع، ولكن ما هو أكثر أهميّة هو أنّك ستكون قد تعرّفت إلى أسلوب تعبيرٍ مختلفٍ، الأسلوب الذي يلجأ إليه الشّعب، في هذا المكان بالذّات، للتّعبير عن فرحه، وحزنه، وغضبه، وخيبته، والأكثر أهميّةً من هذا كلّه أسلوب تعبير الكاتب المنسجم تماماً مع أسلوب تعبير الشّعب. فهو «يحكي» الرّواية بأسلوب متابعتهم.

هل تذكر ليالي الأُنْس في المضافات والإيوانات؟

الرّواية شيءٌ من هذا القَبيل؛ حديثٌ عن حادثةٍ. الحديث يُقاطَعُ بضحكةٍ، أو دمعةٍ، أو رقصةٍ، ويحدث ما يُمكن أن تتصوّر أنّه استطرادٌ، أو أنّه خروجٌ عن الموضوع، ولكن لا، هذا هو أسلوب تعبير الشّعب عن نفسه، وبالتّالي الأسلوب الّذي يلجأ إليه الكاتب.

نحن اعتدنا نمطاً خاصّاً من الرّوايات، وهذا النّمط، في معظمه أوروبيّ، وبين حينٍ وآخر تخرج من مكانٍ من العالم الثّالث روايةٌ، فيُفاجأ الأوروبيّون بوجود أنماط تعبيرٍ إبداعيّةٍ مختلفةٍ، ثمّ نُفاجأ نحن معهم، أو بعدهم، فنحن «نتأوْرب»، إنْ صحّ الاشتقاق، وخصوصاً في أساليب التّعبير الإبداعيّة، وحتّى أساليب التّعبير الشّخصيّة واليوميّة تأثّرت بالسّينما، والتّلفاز، والصّحافة، وهذه كلّها أوروبّيّة.

ماذا يحدث لنا حين نواجه من يعبّر عن نفسه بطريقةٍ مختلفة؟ صدمة الثّقافة؟ هذه تحدث عندما نواجه من نعتقد أنّه أقوى منّا، أو يفرض نفسه علينا، ولذلك نجتهد لابتلاع الصّدمة، ولتفهّم الأسلوب، وربّما تقليده، أمّا عندما يكون التّعبير صادراً عمّن هو أقلّ منّا كما نعتقد، أو عمّن نستهين به، فإنّنا نستنكر، ولا نُتعِب أنفسنا.

وقد يُوحي عنوان الرّواية بأنّها تنحو نحو رواية همنغواي الشّهيرة «العجوز والبحر»، ولكنّ العجوز هنا مختلفٌ؛ إنّه ليس قويّاً، هو عجوزٌ ضعيفٌ مقهورٌ في مجتمعٍ ضعيفٍ مقهور، وهو يخوض معركةً ويُـهزَم فيها من دون أن يظهر خصمه على الحلبة، ولا نَرى إلّا الهزيمة بمعناها الفرديّ والعامّ.

ويحاول العجوز وأهل قريته، وكذلك المؤلّف، التّشبّث بما بقي في الذّاكرة عن أنفسهم، وعاداتهم، وأساليب تعبيرهم، وردود أفعالهم، ولكنّهم يدركون يوميّاً، وبحادثة العجوز، «أنّ البِيض لمْ يتركوا لنا شيئاً».

وفي المشهدين الأخيرين من الرّواية يجلس أهل القرية كلّهم لتقطيب جراحهم النّفسيّة بطريقتهم التّقليديّة، فلا تعرف، أنت الغريب عنهم، إن كانوا حزانى أم غير مبالين، وبالتّالي فإنّك لا تعرف أتحزن عليهم أم تستهين، أو تشمت بهم، أو تحتقرهم.

والكاتب لا يتدخّل، كأنّه جالسٌ بينهم يفعل ما يفعلون، فلا تعرف موقفه، بالمعنى المباشر، ممّا يجري، ويجرّك أنت أيضاً، لتجلس إليهم، وتشاركهم هذا الأسلوب من معالجة الصّدمة.

إنّ انتقاء هذه الرّواية بالذّات للتّرجمة كان يهدف من بين أهداف عديدة إلى تعريفك، ليس فقط بالمشكلة التي يعيشها النّاس، بل بأساليب التّعبير الإبداعيّة عند هؤلاء النّاس أيضاً.

ممدوح عدوان

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الأول

1

كان ميكا قد استيقظ عندما استطاع شعاعٌ من أشعّة الشّمس (تحيّة الصّباح من الله إليه) أن يمرّ من أحد ثقوب رافية([1]) السّقف المهترئ، والممتلئ بالشّقوق التي تسمح لك برؤية السّماء، ويسقط كعادته كلّ صباحٍ في منخره الأيسر.

لم يكن قد استطاع النّوم إلّا لماماً، وكانت عيناه تؤلمانه. تثاءب وتمطّى ليتخلّص من الحجارة التي بدتْ كأنّها تضغط على لوحيْ كتفيْه، وكما لو أنّه يستيقظ بعد ليلةٍ من شُرْب البيرة، واغتاظ؛ لأنّ زوجَهُ ما تزال تشخر. كيف تستطيع أن تنام، وهناك استدعاءٌ من الحاكم العسكريّ مخبّأ في الحذاء تحت السّرير؟

- «كيلارا». جأر وهو يلكزها في ظهرها: «كيف يجيئك النّوم وزوجك في مأزق؟».

تأوّهت كيلارا، وانقلبت نحو الجدار.

وأمسك ميكا بكتفيْها:

- «استيقظي. كيف تستطيعين النّوم وأنا في هذا المأزق؟ يا امرأة، أنت ضعيفةٌ كضعف الحواريّين على جبل الزّيتون. يجب أن نتلو صلاتنا. سنؤجّل الأدعية للقدّيسين، لا أريد أن أتأخّر. باسم الأب...».

انتهيَا من تلاوة صلاتيْهما بإيقاعٍ رتيبٍ، وهُما راكعان على سرير البامبو مثل إبلٍ تنتظر التّحميل، وفي الختام قال ميكا: «آمين». ثمّ نهض وهُوَ يتلفّع بثوبه، واتّجه نحو الباب ليفتحه.

قالت زوجُه: «يجب أن تبتعد من أجل ذلك. الرّائحة تملأ المكان هنا».

دار ميكا حول الكوخ، ثمّ دار حول كومةٍ من الملفوف، ودخل وسط شُجيرةٍ، ثمّ قرْفَص، وقريباً منه كانت خنزيرةٌ تنتظر بنافد الصّبر أن ينتهي.

دار ميكا وعاد إلى زوجِه، زرّر سترته الخاكي، وهو يمعَج كتفيه ليرضى عن مظهره، ثمّ توجّه إلى عمودٍ وسط الكوخ، دقّ فيه مسماراً كبيراً صدئاً ليكون مشجباً للقبّعة، وبوقارٍ أنزل القبّعة العتيقة المصنوعة من الألياف، التي اسودّت من الدّخان. كانت معلّقةً من حزام الذّقن الذي سبق أن قُطِع وأُصْلِح، وخرج منها بعض الصّراصير مع أمّ أربع وأربعين توجّهت نحو كيلارا التي داست عليها بكعبها. نظر ميكا إلى داخل الخوذة، ثمّ دقّ عليها، ونظر إليها ثانيةً، ثمّ وضعها على رأسه، وبعد ذلك قام باللّمسة الأخيرة على مظهره بأن أنزل الحزام تحت ذقنه.

قالت زوجُه: «تبدو جميلاً مثل مبشّرٍ أمريكيّ».

ابتسم لها ميكا، ثمّ جلس على صندوقٍ عتيقٍ من صناديق علب السّردين.

قال لها: «اجلبي لي الطّعام. لا يستطيع المرء المثول أمام رجُلٍ أبيضَ، ومعدته خاويةٌ».

جلبت له زوجُه صحناً من نشاء المنيهوت سبق إعداده في اللّيلة الفائتة، مع قليلٍ من حساء الفول السّوداني، وعندما فرغ الصّحن شرب ميكا كأساً كبيرةً من الماء، ثمّ نهض.

«انتبه!». قالت زوجُه محذّرةً: «يجب ألّا تُظهر مشاعرك أمام الرّجُل الأبيض. ضعني في اعتبارك

ولو لمرّةٍ واحدةٍ. لا تردّ على الحرس، أنت تعرف أنّهم على استعدادٍ لتنفيس غضبهم في عجوزٍ محترمٍ مثلك».

قال ميكا: «سأُبقِي فمي مغلقاً، ولكن إنْ لم أعد اذهبي وأبلغي الكاهن؛ كي يرى ما المسألة. إنّه مدينٌ لي بهذا على الأقلّ».

خرج ميكا من الكوخ، وراحت زوجُه الجالسة قرب الباب تتابعه بنظرها إلى أنْ لم يعد يظهر منه إلّا نقطةٌ بيضاءُ عند طرف القرية البعيد.

لم ينهض ميكا مبكّراً؛ لأنّ القرية بعيدةٌ عن المدينة، وعلى الرّغم من أنّه كان قد قصدها سابقاً أكثر من مرّةٍ كي يأخذ التّلقيح في (مركز الرّجُل الأَسْود) إلّا أنّه لم يكن يعرف حقيقة المسافة بين قرية (دوم) والمدينة. كان يحسب المسافة بوقفةٍ واحدةٍ عند استراحة (ماما تيتي)، وكانت هذه امرأة قد جاءت من السّاحل، ثمّ عُرِفَتْ كمُقَطِّرَة للعَرَق، وكانت تعيش في ضاحيةٍ إفريقيّةٍ، وما إن تصل إليها حتّى تكون قد أوشكتَ على دخول المدينة، ومن هناك إلى مكتب الحاكم العسكريّ بضع خطوات صعوداً على التلّ.

راح ميكا يختصر الطّريق متجاوزاً الممرّات المسيّجة والظّاهرة في العشب، التي تمرّ بالشّجيرات الصّغيرة المحيطة بالمدن الاستيطانيّة، وتبلّل بنطاله حتّى الرّكبة، ففي تلك السّاعة من الصّباح تكون الأعشاب المتدلّية على الممرّ محمّلةً بالنّدى، وكان ميكا يُبعدها بعصاه، إلّا أنّها كانت ترتدّ وتمسّ بنطاله فتبلّله.

تنفّس ميكا الصّعداء عندما وصل الدّرب إلى الضّاحية، وظهرت المدينة الأوروبيّة المبنيّة على التلّة المجاورة بحيث تطلّ على الضّاحية، وهزّ ميكا ساقه، ثمّ هزّ الأُخرى، وعند كلّ هزّةٍ كان قماش بنطاله يُصدر صوت (بلوك). طوى بنطاله حتّى الرّكبتين، فكشف عن كاحليه النّحيلين، وانسلّ ميكا بين الأكواخ، ودار حول أكواخٍ أُخرى، ثمّ دخل إلى أحدها. هذا هو المكان المعهود لتوقّفه.

كان الكوخ يعجّ بالحياة؛ فكلّ من يخرج للعمل من الحيّ الأوروبّي يأتي إلى هنا، إلى محلّ (ماما تيتي) ليتزوّد لنهاره. كانوا يقرفصون على كعوبهم، أو يجلسون على الأكياس، وهم يحتسون العَرَق، ويتحدّثون بصخبٍ.

علّق ميكا قبّعته على ركبته، وأسند عصاه إلى الجدار، ثمّ فرك كفّيه، ومرّرهما بين فخذيه، وبعدها لوى ظهره وتثاءب.

- «لابدّ من أنّك قد بكّرت في النّهوض للخروج إلى الصّيد». قال جاره، وهو يركّز عينيه على بنطال ميكا: «الصّيّاد البارع كالمومس تستطيع أن تستدلّ عليه من بُعد ميل».

- «سِرْتُ في الممرّات الجانبيّة». قال ميكا بابتسامةٍ مرتبكةٍ: «أنا لا أرتاح إلّا على الدّروب، الطّريق صعبة عليّ بحجارتها الكبيرة..».

وغضَّن وجهه كأنّ شيئاً مّا يؤلمه.

- «لا بدَّ من أنّ أمّك قد أكلت فأراً عندما كانت حاملاً بك». قال جاره، وهو ينفجر ضاحكاً، وامتدّ الضّحك إلى الآخرين.

- «يكفي». قالت ماما تيتي: «هذا الرّجُل ليس رجُلاً بالجنس فقط. الرّجال من أمثاله لم يعودوا يأتون بهذه الطّريقة..».

- «يا ظهر البقرة! الآن تذكّرت هذا الوجه». قال جار ميكا: «أتعرف ماذا يخطر لي؟ أنت الذي أعطيت أرضك للرّبّ».

وصحّح له آخر: «تعني للإرساليّة الكاثوليكيّة».

- وما الفارق؟

وقالت ماما تيتي: «الأمر ذاته»، وبرزت عضلات ذراعيْها القويّة، وهي تنتقل بين مجموعةٍ وأُخرى حاملةً دمجانات الكحول (البطحات).

وألحّ جاره: «ولكن، هل كنت أنت؟».

- نعم. أنا.

وخيّم صمت الدّهشة على الكوخ.

قال أحدهم: «يا للمقبوح الغبيّ!».

وقال ميكا: «أنت -على الأقلّ- صريحٌ في هذا».

وقال آخر: «لو أنّهم أخذوها منك لما فاجأتني».

فقال ميكا: «في الأمر شيءٌ من هذا أيضاً».

وقال المتحدّث الآخر: «واستدعاك الحاكم العسكريّ ليراك».

- نعم.

- «لا تستطيع الذّهاب لرؤية الحاكم العسكريّ، ووجهك بهذا الشّكل». قالت ماما تيتي، وهي تقدّم طاساً ممتلئاً لميكا: «إذا ذهب إلى هناك، وهو يبدو مثل امرأةٍ عجوزٍ، لن يجد من يكلّمه».

قال ميكا: «سبب ذهابي إلى هناك سخيفٌ»، وهزّ رأسه محتجّاً، ثمّ أضاف: «فالحكومة...»، وقاطعته ماما تيتي بدهشة: «الحكومة؟»

- «أعني الحاكم العسكريّ..»، وهزّ رأسه محتجّاً مرّةً أُخرى، ثمّ أضاف: «لو اكتشفت الحكومة أنّني قد شربت هذا...»، وتردّد ميكا مرّةً أُخرى، ثمّ اختطفت يده اليُمنى الطّاس من ماما تيتي، ورسم الصّليب على نفسه باليد اليُسرى بسرعةٍ من دون أن يكمل حتّى «الرّوح القدس». ثمّ ضمّ الطّاس بين راحتيه، وهو ما يزال يهزّ رأسه باحتجاجٍ.

- لو أنّ الحاكم العسكريّ اكتشف أنّني كنت أشرب الكحول فسيكون السّجن...

- «ما عليك إلاّ أن تأكل برتقالتين». قال الرّجُل الذي شتمه ووصفه بالمقبوح الغبيّ.

- وإذا سألك عمّا إذا كنت شربت تستطيع القول: إنّك قد أكلت برتقالة.

- «فكرةٌ حَسنة». قال ميكا شاكراً، وأفرغ الطّاس بجرعةٍ واحدةٍ. مطمط وجهه، وتجشّأ، ثمّ

أعلن: «إنّها دمعة عَرقٍ حقيقيّة. كيف تقول: (أكلتُ برتقالة) بالفرنسيّة؟»

وقال أحدهم: «مواسوسي دورانج».

فكرّر ميكا: «دورانج مواسوسي».

معقول. وقال في نفسه: «هذا الولد ذكيّ». لم يكن من الممكن أن تخطر له الفكرة. (سوسي دورانج) لن يشمّ أحدٌ منه إلّا رائحة البرتقال، والبِيضُ يصدّقون أيّ شيءٍ، كما أنّ الحاكم العسكريّ لا يستطيع أن يحرّم بيع البرتقال، والفتى الذي فكّر في ذلك هو السُّلحفاة بعينها.

كان من الممنوع على أبناء البلد تقطير خَمرتهم الخاصّة من الذُّرة والموز؛ وذلك لتحويلهما لصالح المشروبات الأوروبيّة والخمرة الحمراء التي تتدفّق إلى المركز التّجاريّ.

ولفترةٍ طويلةٍ كان غولي -هكذا كان الإفريقيّون يسمّونه بسبب رقبته الطّويلة- ورجاله يسعون بجديّةٍ للقبض على كلّ من يبيع المواد سرّاً، وكانت الغارات تتالى، وصار العَرقُ أكثر ندرةً من دموع الكلاب، ولو أنّ غولي كان قادراً على الاستيقاظ في ساعةٍ معيّنةٍ من الصّباح الباكر، في السّاعة التي يكون فيها المستوطن مخدّراً بالحرارة الاستوائيّة، وبويسكي اللّيلة الفائتة، وهو يغطّ تحت النّاموسيّة التي تقيه من البعوض، وفمه مُغطّى، لَلَحَظَ أنّ الضّاحية ممتلئةٌ بالصّخب والحيويّة، وخاصّةً حول محلّ ماما تيتي، ومن أجل تأمين الهدوء ذهب غولي لرؤية الأب فاندر ماير.

ولم يتردّد المبشّر في إدانة الشّراب من منبر الوَعْظ؛ لأنّ الشّراب، كما قال، يُسوّد أسنان رعيّته وأرواحهم، وشرّع بأنّ كلّ مسيحيٍّ يشربه إنّما يقترف إثماً مع كلّ جرعةٍ.

هذا كلّه جعل ميكا يحسّ أنّه في وضعٍ غريبٍ، فقد كان يُعدُّ مسيحيّاً نموذجاً لدى البعثة التّبشيريّة الكاثوليكيّة في دوم، ولقد (أعطى) أراضيه للكهنة، وهو الآن يعيش في كوخٍ بائسٍ في القرية التي منحت اسمها للبعثة، وتمدّدت تحت المقبرة المسيحيّة.

لقد كان له الامتياز الخاصّ بأن يكون صاحب قطعة أرضٍ تبيّن ذات صباحٍ أنّها تعجب الرّبّ، وكشف له كاهنٌ أبيضُ عن هذا التّقدير القدسيّ، فكيف يعارض إرادة الرّبّ المُعطي؟ وميكا، الّذي كان قد وُلد من جديد بالمعموديّة، تطامن أمام مبعوث العليّ القدير، وبحماسٍ شديدٍ راح يتابع عمليّة إقامة بيت الرّبّ على أرض أجداده، وفي المساء السّابق لتدشين الكنيسة من قِبَل الأسْقف طلب إلى ميكا أن يختار مكانه في الكنيسة، فاختار بقعةً إسمنتيّةً مغبرّةً مغطّاةً بالذّباب، ومخصّصةً للمتسوّلين، في الطّرف الأقصى من صحن الكنيسة وراء آخر صفٍّ من المُصلّين، ومن هذا المكان كان ميكا يتابع الطّقوس كلّ أحد، وهو راكعٌ إلى جانب عجوزٍ مجذومٍ، وعلى الرّغم من المسافة الّتي تفصله عن مائدة الرّبّ، فقد كان ميكا يذهب قبل الجميع من أجل العشاء الرّبّاني، حتّى قبل القسّ، وعند عودته كان يبدو مهدّماً من التّواضع، كأنّ الله قد حلّ فيه، بينما طلعته متوهّجة ومتغيّرة. وكان ميكا، بالنّسبة إلى مسيحيّي دوم أوّل المرشّحين للجنّة؛ لأنّه أحد الفانين القلائل الّذين لا يحتاجون إلى أكثر من الظّهور لكي يدخلوا المطهر.

ولذا فإنّ ميكا حين كان يأتي إلى محلّ ماما تيتي بين حينٍ وآخر، فإنّ الأمر لم يكن يمرّ من دون أن يعتصر قلبه، فهو بين النّاس كلّهم يجب ألّا يكون مثلاً سيّئاً، ولكنّ «الفم الّذي رضع لا يمكن

أن ينسى طعم الحليب». كما كان يقول لنفسه، فكيف له إذاً أن ينسى الجنّ الإفريقيّ الذي تذوّق قطرات منه قبل أن يظهر الشّعر على بطنه، وقبل أن يتذوّق حلاوة الرّبّ؟

ثّم إنّ هذا الشّراب هو أوّلاً وقبل كلّ شيءٍ دواء، وفي كلّ مرّةٍ كان يتناوله فيها كانت آلام الرّوماتيزم تختفي، ولم يكن يريد أن يخدع الأب فاندر ماير، لذا فإنّه في كلّ اعترافٍ كان يقول: «يا أبتِ، لقد أطفأتَ ظمئي من دون أن تكون بي حاجة»، وكان هذا يثير دهشة الأب فاندر ماير الّذي كان يقول له: «يا أخي، ليس إطفاء الظّمأ خطيئةً، وليس عليك أن تكون أكثر صرامةً من قوانين الرّبّ وقوانين الكنيسة».

وبهذا كان ميكا يستطيع الوثوق من قدّاسه في اليوم التّالي.

وأفرغ ميكا طاساً آخر، وكان الجميع يمرحون.

وجاءت صرخةٌ مسعورةٌ: «إنّه يجلس على سرير».

- «مووو». صاح الجميع مقلّدين أصوات العجيزات حين ترتمي على سريرٍ من الخيزران.

- طبلٌ يأتي من نبتة القطن.

وجاء الجواب من المجموعة: «فلنتابع الشّرب فيما نحن نتحدّث».

-Ite, missa est ([2])

وضحك الجميع.

قال ميكا: «أيّها السّادة، عليّ أن أغادركم، فأنا ذاهبٌ إلى مقرّ الحاكم العسكريّ».

ودفع القبّعة فوق رأسه.

كانت الطّريق الرّئيسة ممتدّةً أمامه، وبدا له أنّه يراها للمرّة الأولى. صارت تبدو ضيّقةً من بعيد هناك في أعلى التّلّ، حيث يجب أن يكون السّقف التّنكيّ للمقرّ.

وقال ميكا: «الطّريق جميلةٌ. جميلةٌ فعلاً. أيتّها الطّريق، يا ابنة جهودنا كلّها، قوديني إلى الرّجُل الأبيض».

وسَرتْ نغمةٌ في رأسه، فبدأ يصفّر مترنّماً بها، وهو يدوّر عصاه على نغم الموسيقا، ثمّ وضع العصا على كتفيه، وعلّق ذراعيه عليها. «جميل». أحسّ كأنّ ثقلاً كبيراً قد أُزيح عن كاهله، وصارت النّغمة الّتي يصفّر مترنّماً بها تخرج من شفتيْه لتعود إلى رأسه من جديد، وراح يغنّي، كانت أغنيةً قديمةً من أيّام ما قبل الحرب، أيّام بردوت،([3]) واكتشف أنّه يستطيع تذكّر الكلمات بسهولةٍ.

كان فمي مالحاً

حين نظرتُ إلى إبطيك

وازدادت الملوحة

حين نظرتُ إلى مكانٍ آخر

وأنا أفضّل هذه الملوحة

حين أنظر إلى مكانٍ آخر

الملوحة المنتصرة

حين أنظر إلى مكانٍ آخر

إنّها تتعرّق في الطّريق

حين أنظر إلى مكانٍ آخر

وتنام تحت شجرة المانغا

حين أنظر إلى مكانٍ آخر

وتراقص ميكا قليلاً. هل قدّماه له فعلاً؟ لا، لا يُمكن. إنّهما خفيفتان! كم هو رائعٌ أن تحسّ بأنّك حرٌّ، وفتيٌّ، وسعيد.

وسأله أحد العابرين: «هل أنت بخير يا عمّ؟».

«بالضّبط». قال ميكا، وراح يغنّي من جديد:

- كان فمي مالحاً.

وتجمّع حوله الإفريقيّون الذّاهبون إلى الحيّ الأوروبيّ جميعهم، وراحوا يردّدون معه الأغنية مشكّلين جوقةً: «حين أنظر إلى مكانٍ آخر».

كان ميكا يغنّي الأبيات لنفسه.

ووجد نفسه على قمّة التّلّ من دون أن يتذكّر كيف وصل.

وسأله أحدهم: «إلى أين يا عمّ؟».

- إلى هناك، إلى الأمام مباشرةً، إلى داخل البيت، هناك حيث يُشير طرف العصا. إنّني ذاهب لرؤية الحاكم العسكريّ.

- خبّئ لي قطعةً من الخبز.

- «وزجاجة بيرغر». قال ميكا.

وضحك الجميع، بينما راح ميكا يلوّح بيديه حول جسمه، ثمّ خلع قبّعته. أمامه الآن مكتب الحاكم العسكريّ.

كان معروفاً في دوم ما الذي تعنيه الاستدعاءات الرّسميّة، ولكن كان هناك نوعٌ من التّكريم المشؤوم في أن ينتقيك الحاكم العسكريّ، وميكا نفسه لم يكن من النّوع الذي يمكن أن تنتبه إليه، فهو مُنتمٍ بكليّته إلى الرّبّ الذي كان يذهب لمحادثته بين غبار الكنيسة وذبابها، ومُستغرقٌ في تواضعه؛ لتعلّقه بالأرض وبما عليها من علب الجنّ الإفريقيّ، والسّردين، والقوارض المسودّة بالدّخان، ولا بدّ من أن تتوفّر للحاكم العسكريّ عين الرّبّ كي يهتّم بميكا، وبعد أن حاول

القرويّون معرفة سبب استدعاء ميكا وأخفقوا، غطّوا في نومهم، وهُم مقتنعون بأنَّ الأرض سوف تتلقّى شهيداً، شهيداً مقدّساً.

فُتِحت الأبواب واحداً بعد الآخر لخروج الحيوانات الأليفة إلى البهْو، وهي التي كانت تتمتّع بامتياز النّوم داخل الأكواخ، وخرج النّاس أيضاً لابسين الملابس والأوشحة، ورشقوا وجوههم بالماء، وتوجّهوا في مجموعاتٍ صغيرةٍ نحو الكنيسة الطّينيّة الكائنة في طرف القرية، وانضمّت إليهم كيلارا زوجُ ميكا.

وسألها أحدهم: «هل نمتِ جيّداً يا كيلار؟»

فقالت: «كنت أعدّ قضبان الحصير في السّقف».

- «وأنا أيضاً فعلت ذلك». قال شخصٌ آخر.

كانوا يتجنّبون الحديث في الموضوع الذي أرّقهم في الّليل. لقد أتعب الفم نفسه في الحديث، وجاء دور القلب الآن ليحلّ محلّه.

كانت الكنيسة الصّغيرة تجتذب المسيحيّين كلّهم عندما كان الملقّن أغناطيوس أوبيي يتلو الصّلاة، وركعت كيلارا على أحد جذوع أشجار المغنوليا المقطوعة منذ زمن، التي كانت تُستعمل كمقاعد وكراسٍ للصّلاة، وبدأت بصلواتٍ للقدّيسين كافّة، من تلك الصّلوات الّتي لم تكن تستطيع تلاوتها مع زوجها، وطار من ذهنها كلّ شيءٍ آخر.

دخل أغناطيوس أوبيي. كان ذا بنيةٍ قويّةٍ، ومظهرٍ مُخيفٍ بعنقه الشّبيهة بعنق الثّور، وعينيْه الماكرتيْن في قمّة رأسه. كان تقريباً بلا جبينٍ، والمثير للضّحك فيه هو ذلك الصّوت النّحيل الّذي يخرج من تلك الكتلة الهائلة من الّلحم، فحين كان أغناطيوس أوبيي يتكلّم كان صوته أشبه بصوت الطّفل.

في ذلك الصّباح كان يرتدي صدريّةً قذرةً لم تكن تصل إلى سُرّته، وكانت بطنه مندلقةً بين الزرّ الثّالث في الصدريّة والدّثار الصّوفيّ الذي لفّه حول خصره.

بدأ الصّلاة، وردّد المصلّون وراءه.

كان سكّان دوم كلّهم حول الكنيسة عندما قال أغناطيوس أوبيي: «آمين». وكانت الشّمس قد صارت فوق الأفق، وكانت تبعث الدّفء المريح الّلطيف الذي تشيعه النّار في الكوخ.

- «مباركٌ يسوع المسيح». قال أغناطيوس، وهو ينضمّ إلى إحدى مجموعات المسيحيّين.

- «إلى أبد الآبدين». ردّد القرويّون، وهُمْ يُفسحون له كي يستطيع الوقوف وسط الحلقة.

- «كيلارا. يا أختي». قال أغناطيوس، وهو يفرك يديه: «ضعي ثقتك في الرّبّ. لن يحدث شيءٌ إلاّ بإرادته، والذين يؤمنون به... لا يخيبون أبداً».

- أؤمن، نعم أنا أؤمن. أعرف أنّني أستطيع أن أحسّ بإيماني داخل صدري، وهو يخفق... وكلّما نظرت إلى السّماء أكون واثقةً من أنّ الرّبّ موجودٌ في طرفها الآخر، ولكنّ الأمر مع هؤلاء البِيض...

- «هو أقوى منهم». أعول أغناطيوس، وهو يخطو بقدمه الجبّارة المسطّحة مثيراً غيمةً من

الغبار.

وظلّ يتفحّص السّماء إلى أن بَهره الوهج الفولاذيّ في الغيوم التي تنعكس عليها الشّمس، وعندها أخفض رأسه وجأر، كأنّه قد عثر في الحال على منبعٍ لقوّةٍ جديدةٍ.

«كلّ شيءٍ من عنده».

وقالت كيلارا: «لن أذهب إلى الحقل اليوم؛ إنّه يومٌ أسْود. سأنتظر ميكا عند باب البيت، وأنا أردّد الصّلوات... فإنْ لمْ يرجعْ، سأذهب لرؤية القسّ كما طلب إليّ. مباركٌ يسوع المسيح»

- «إلى أبد الآبدين». قال صوت أغناطيوس أوبيي النّحيل المخنوق، وتفرّق الجميع.

كم من الوقت مضى على كيلارا، وهي جالسةٌ أمام بابها، وعيناها مثبّتتان على الطّرف البعيد من القرية حيث اختفى زوجها؟ لقد تجاوزت الشّمس منتصف السّماء، وبدأت بالانحدار، وعاد الرّجال منهوكين من الحقول وبأيديهم السّواطير، وما كانوا يريدون سوى خرقةٍ صغيرةٍ للحشمة، وطوقٍ حول العُنق، وراحوا يتوافدون متهالكين إلى بيت كيلارا.

وعلى الرّغم من أنّ أنفاسهم كانت متقطّعةً، بحيث كانوا لا يستطيعون الكلام عندما يصبحون في حضرة زوجِ ميكا، فإنّهم وجدوا لديهم القدرة لمنحها نظرةً تعبّر عن قلقهم، ومثلما هبطت الشّمس هبطت آمال كيلارا، لقد ظهرت الظّلال، وعبرت القرية طيورُ المساء، وبدأت كيلارا تفقد الأمل.

في تلك الّلحظة سمعت صوت سيّارةٍ، وسمعته معها القرية كلّها. صار القرويّون كلّهم خارج أكواخهم، وصرخ أحدهم: «ها هي!».

وتقدّمت السّيّارة نحو منتصف السّاحة، ووراءها حشدٌ من الأطفال العُراة الصّاخبين، وكان ميكا يجلس إلى جوار الرّجُل الأبيض الذي كان يقودها، وبين حينٍ وآخر كان يُطلّ من النّافذة كي يراه كلّ من في القرية، وعندما نزل أمام بيته صافحه الرّجُل الأبيض، وساعده على إنزال حقيبةٍ، بدا واضحاً من جهود الرّجُلَيْن أنّها ثقيلةٌ جدّاً، وبعدها غادر الرّجُل الأبيضُ، وهو يلوّح لميكا الّذي ردّ عليه بقبّعته إلى أن غابت السّيّارة عن الأنظار، وركضت زوجُه نحوه، وهي تحمد الله.

تجمّعت القرية كلّها حول ميكا، وكان قد فقد هيئة القدسيّة. نفخ تخفُّفاً، وتناولت زوجُه منه القبّعة بينما أعطى العصا لأحد الشّباب، ثمّ تفتح بابتسامةٍ عريضةٍ.

وبنفاد صبرٍ قالت كيلارا: «لن تتركنا فريسةً للهواجس والتّساؤلات».

وأيّدها المجتمعون: «هذا رأينا جميعاً».

نظّف ميكا حَنجرته، ومرّر لسانه على شفتيه، وبدأ بالقول: «طيّب»، ثمّ أضاف: «استدعاني الحاكم العسكري ليخبرني بأنّ الزّعيم الأكبر للبِيض كلّهم، والموجود في (تمبا)، سيأتي ليمنحني وساماً في الرّابع عشر من تمّوز/يوليو...».

ساد صمتٌ قصيرٌ، ثمّ قطعته زغاريد النّساء. لقد أطلقنَ زغاريدَ فرحٍ لو سمعها الأبيض الجديد في البلد لأخطأ، وعَدّها صرخات إنذار، ثمّ هدّأت النّسوة أنفسهنّ، وشكّل الجميع ما يُشبه الحلقة أمام شُرفة ميكا، حيث كان يجلس قرب زوجه، وهو يهزّ رأسه.

- «ما الأمر؟». كان القادمون الجُدد يسألون: «ماذا حدث؟».

- يبدو أنّ وساماً من باريس سيقدّمه زعيم البِيض له في تمبا، سيأتي من أجل ذلك خاصّةً.

بهذا أجاب من كانوا قد جاؤوا قبل غيرهم وسمعوا النّبأ.

وعند حلول الظّلام لمْ يَعُد الأمر يتوقّف عند مجيء الوسام من باريس، بل إنّ الزّعيم الأعلى للبِيض، رئيس الجمهوريّة، هو الذي سيأتي ليعلّق وساماً على صدر ميكا.

وقال ميكا لزوجه: «أنا لا أحبّ هذا الاحتفال قبل تعليق الوسام هنا»، وربّت على صدره: «ومع أولئك البِيض الّذين لمْ يسبقْ لكِ أنْ عرفتِهم».

قام ميكا بإبعاد النّساء، فهذه الاحتفالات قبل أوانها قد تكون فَألاً سيّئاً، ولقد كان واثقاً من أنّ الوسام موجودٌ في أحد أدراج مكتب الحاكم العسكريّ، أو مكتب الزّعيم الأبيض الموجود في تمبا، إلاّ أنّ شيئاً ما يمكن أن يحدث له خلال الأسبوع الباقي على الرّابع عشر من تمّوز/يوليو، فهو عجوزٌ، وهذا أمرٌ يخيفه، ولقد قال لنفسه: «العجائز يمرضون صباحاً، فيموتون مساءً». وحاول أن يحسب عمره، لكنّه لمْ يستطعْ، وأحسّ بالأسف؛ لأنّه لمْ يُولدْ في الوقت الّذي صارت فيه كلّ ولادةٍ تُسجّل في السّجلّ الكبير، ولهذا فقدْ كان مثل الأشياء الّتي يُقال عنها إنّها أكبر من عمرها الحقيقيّ؛ لأنّ أحداً لا يعرف عمرها. حكّ رأسه، وحسّس على شعره، وطغى عليه شعورٌ بالغبطة، فقد جاء عجائز القرية ليُجَالِسُوه، وكان بينهم نوا الذي هو الآخر لا يعرف عمره أحد، وهو شبيهٌ بقطعة لحمٍ مجفّفةٍ على الدّخان، وحنكه دائمُ الحركة، فهو يحتفظ دائماً تحت لسانه بجوزة الكولا،[4] ثمّ جاء نتي المميّز بأعراض تضخّم الأطراف، ولمْ يكنْ من أهالي دوم، فقد جاءها بعد أن اجتذبتْه مدينةٌ مجاورةٌ، وظلّ طوال عشرين عاماً ينزل كلّ صباح إلى المدينة على أمل أنْ يجد عملاً، وكان يقوم ببعض الأعمال التّافهة التي تعود عليه آخر النّهار ببعض القروش، وفي موسم الكاكاو كان نتي يعمل عند ميكا، ولذا ظلّ ميكا طوال عشرين عاماً يدعوه إلى الطّعام.

أمّا مغويندو فكان ابن أخت ميكا، وعلى الرّغم من أنّه ابن الأخت الصّغرى، فإنّه فَقَدَ شَعره كلّه، ولقد تعارف النّاس في القرية على أنّه لمْ يسبقْ له أنْ كانَ صغيراً، وهناك حكايةٌ تُروى عنه أنّه وُلد بأسنانه كلّها، ولذلك لم يفاجأ بصلعه في الثّلاثين من عمره، وبتجاعيده، وتشوّهاته، حتّى أصبح أشبه بالسّحليّة.

وكان إيفينا طاهياً للقسّ، ثمّ اعتزل في دوم بعد أن فقد آخر أسنانه في خدمة البِيض. صار فمه غائراً يسحب ذقنه نحو عنقه، ويبرز أنفه بشدّة، وكان منخراه واسعيْن إلى درجة أنّك كنت تستطيع أن ترى المخاط الأبيض المتجمّع فيهما، وقد هجرته زوجُه، فهو لا ينفعها بظهره المحنيّ، ويديه الملويّتين اللّتين ترتعشان مثل ورقةٍ في الرّيح، وهو يقضي النّهار محاولاً أن يستدفئ في انتظار الموت، وكلّ من كان يدعوه كان يعرف أنّها دعوة إحسان، فلَمْ يعُدْ هناك أملٌ في أنّه سوف يقوم بالواجب.

وجاء أبناء عمومةٍ، من طرفه ومن طرف زوجِه، وأبناء أخت قريبٍ لابن عمٍّ لكيلارا، وكان هؤلاء قد جاؤوا إلى دوم لعدّة أيّامٍ، ومكثوا أسبوعاً، وهُمْ -كلّ يومٍ- يؤجّلون سفرهم إلى اليوم التّالي.

هؤلاء كلّهم تجمّعوا حول مصباح (التيلي) الذي وضعه ميكا بين ساقيه كي يشاركوه فرحته،

وعلى كلّ شيءٍ يُمكن أنْ يُسْنِدَ مؤخّرةً، جَلَسَ ضَيْفٌ، بل إنّ بعضهم لفّوا ثيابهم كي لا تتّسخ، وجلسوا بأردافهم العارية على الأرض.

- «نعم؟». قال نوا، وعيْناه تبرقان.

- «حين وصلت إلى هناك»، بدأ ميكا الكلام: «لمْ يكن الحاكم العسكريّ قد وصل بعدُ».

قال أحدهم: «كنت محقّاً حين قلت إنّه ذهب مبكّراً».

فقال نوا: «كفانا. لست أنت من يحكي القصّة».

وتابع ميكا: «وكان اليوم للاندابا،([5]) وكانت شرفة الحاكم العسكريّ مكتظّةً بالنّاس حين وصلتُ، فانتظرتُ ما يكفي من الوقت لكسر جوزة كولا مع... ما اسمه؟ من الّذي يعرف كيف يسمّون ذلك الملقّن البروتستانتي؟».

- أيُّهُم؟

- ذلك الذي يقوم بالعمل كلّه مع امرأةٍ حول جثّة إحدى تلك القرود التي تبدو شبيهةً بالكلاب.

- آه. أنا أعرف. إنّه... دافيد أوندوا.

- هذا هو. انتبه كلٌّ منّا إلى أنّه يجلس إلى جوار الآخر على مقعدٍ، وكان هناك لشأنٍ من شؤون الكاكاو، وكما قلتُ: كسرنا جوزة كولا، ولم أكد أنكش أسناني حتّى وصل الحاكم العسكريّ، وتعرفون ما يحدث؛ يصل الحاكم، فيصيح كبير الموظفين، ويؤدّي التّحيّة الموظّفون، والمدعوّون، والشّرطة جميعهم، ويصيح كبير الموظفين مرّةً أُخرى، فيتابع كلّ إنسانٍ عمله الذي كان فيه...

كان الجميع يُصغون باهتمامٍ، وبعد توقّفٍ قصيرٍ تابع حديثه: «كنت أوّل شخصٍ يستدعيه، وطلب إليّ أن أجلس قبالته، ثمّ استدعى مترجماً وقف بيننا، وراح الرّجُل الأبيض يتحدّث طويلاً، والمترجم يترجم ما يقوله على هذا الشّكل: يا ميكا، أنت الآن رجُلٌ متميّزٌ، ومنذ أن جئتُ إلى هذه البلاد لمْ أرَ (كاكاو) جافّاً مثل الذي عندك».

قال نوا: «من جهة الكاكاو هذا صحيح».

- وقال: لقد بذلت الكثير من أجل تقدّم أعمال فرنسا في هذا البلد، لقد قدّمت أراضيك للإرساليّات، وقدّمت ولديك في الحرب التي لَقيا فيها موتاً مجيداً (ومسح دمعةً وهميّةً). أنت صديقٌ. وشدّ على يديّ من فوق الطّاولة، ثمّ أنهى الكلام قائلاً: الوسام الذي سنمنحك إيّاه يعني أنّك أكثر من صديق. هذا تقريباً ما شرحه لي المترجم. وردّاً على ما قاله الحاكم العسكريّ قلت له: إنّني، من جهتي، سعيدٌ بأن أكون صديقاً للرّجُل الأبيض، وسألته عمّن سيمنحني الوسام؛ لأنّه قال: (نحن)، وضحك الرّجُل الأبيض حين سمع كلامي، فتحدّث من جديدٍ إلى المترجم الذي قال لي: إنّه رئيس البِيض نفسه في تمبا، وليس معاونه، الذي سيأتي ويعلّق لي الوسام.

بعد ذلك انتظرت الملقّن الأمريكيّ، وهو من الأنسباء؛ لأنّه في قبيلة يمغام صهر الصّهر،([6]) وابنته تزوّجها واحدٌ من (هاوسا)، فذهبنا إلى بيتها ظهراً، تناولنا الكُسْكسي. لا أحد يعرف كيف يطبخ الكُسْكسي أفضل من هاوسا، وبعدها تمشّينا إلى المركز التّجاريّ، وهناك التقيت بالسّيّد

كوبنغولوم، زبوني الدّائم الذي يشتري منّي الكاكاو، وقال لي: إنّني أستطيع أن آخذ كلّ ما أشاء من حانوته.

- «مجّاناً؟». سأله مغوندو، ونبرة شكٍّ في صوته.

- نعم. مجّاناً. ربّما أنّ قلبه حدّثه.. لا أعرف، ولكنّني لا أشكّ في أنّه سرق منّي الكثير.

- «ربّما شارف على الموت». قال إيفينا: «وهو يُريد أن يتصالح مع الرّبّ».

- «كوبنغولوم العجوز! هو فعلاً على حافّة القبر». قال صوتٌ صادرٌ من منطقة الظّلّ.

قال ميكا: «وهكذا انتقيت هذه الحقيبة من علب السّردين».

واتّجهت الرّؤوس كلّها في اتّجاه الحقيبة التي صارت الآن تحت سرير البامبو.

وظهر شبحٌ هائلٌ لإنسانٍ بالباب، وصدر عنه صوتٌ ناعمٌ: «مباركٌ يسوع المسيح». وردّ الجميع: «إلى أبد الآبدين».

- «هذا أنت يا أغناطيوس!». قال ميكا، وهو يرفع عينيْه، ويدفع الحقيبة بقدمه أبعد تحت السّرير.

- «أردت أن أشارككم فرحتكم الدّنيويّة، على الرّغم من أنّني لا أعرف سببها»، وقال ميكا: «مغوندو. أنت من أهل البيت. أعطِ مقعدك للملقّن».

ونهض مغوندو، وذهب ليتّكئ على الجدار، بينما جلس أغناطيوس قبالة ميكا.

- «كما ترين يا كيلارا، لقد كنتُ على حقّ حين قلت لك إنّه لن يحدث له سوء».

قالت كيلارا: «إنّني لم أفقد الأمل قطّ».

- «والآن يا أخي». قال الصّوت النّحيل: «أين حصّتي من الأخبار؟».

- «ليس هناك ما يستحقّ الاهتمام». قال ميكا بتواضعٍ كاذبٍ: «زعيم البيض في تمبا سيأتي بنفسه ليعلّق على صدري وساماً.. هنا». وأشار مرّةً أُخرى إلى صدره بإصبعه.

- «إنّني سعيدٌ من أجلك يا أخي»، قال أغناطيوس: «وتمنّياتي المخلصة بأن ننال وساماً آخر، ولكن هذه المرّة وساماً حقيقيّاً، وهل سيكون هذا الوسام من نصيبنا؟([7]) هذا هو السّؤال الذي يجب أن يشغلنا».

وقطّب ميكا، بينما تابع أغناطيوس: «عالمنا فاسدٌ، يحكمه الغرور، والغرور يؤدّي إلى تدمير ما خلقه الله... خذوا مثلاً هذا البغاء الذي انتشر في كلّ مكانٍ من الأحياء الإفريقيّة...، والكحول التي تتدفّق إلى البلد... الكحول التي تغرق فيه الرّوح ذاتها.. وقنبلة الدّخان الّتي اخترعها البِيض. لِمَ لا نرى في هذا كلّه العلامات التي أبلغنا بأنّها ستظهر قبل نهاية العالم؟ أقول لكم: إنّ العالم يعيش في مغامرة الشّيطان، وأنّ مستقبله يرعبني».

وقطّب ميكا مرّةً أُخرى، ثمّ قال وقد ظهرت الرّعشة في صوته: «لِمَ تقول هذا كلّه؟ أبسبب وِسَامِي؟».

فردّ أغناطيوس بلطفٍ: «لا. لا. إنّني أتحدّث عن أشياء أُخرى أكثر أهميّة من الوسام».

وانفجر ميكا ساخطاً: «يا لَلقدّيسين! هل سنعيش مُنتظرين نهاية العالم؟ وإذا أُعطيت وساماً، فهل سترفضه بسبب قنبلة الدّخان ونهاية العالم؟ وبالمناسبة، ما هي قنبلة الدّخان هذه الّتي تظلّ تتحدّث عنها؟».

فأجاب أغناطيوس: «إنّها من صنع الغرور. لقد اخترع البيض قنبلةً لو سقطت واحدةٌ منها هنا لما ظلّت هناك أشجارٌ، أو أرضٌ، أو أيّ شيءٍ ممّا ترى، أو تسمع... سنتحوّل كلّنا إلى دخان..».

- يا لهؤلاء البِيض! كأنّهم لم يسبّبوا لنا ما يكفي من المشكلات: أوّلاً البندقيّة، ثمّ الرّشّاش، والآن هذه القنبلة الدّخانيّة.

فقال أغناطيوس بابتسامةٍ عريضةٍ: «نحن أعضاء الإرساليّات مثل البوم، كلّما قلنا لكم ما سيحدث يصرخ الجميع: إنّه السّحر...».

- ....

- ميكا، لا حاجة بك إلى أن تنظر إليّ هكذا. أنا لم أقل إلاّ الحقّ.

- إنّك لم تقل الحقّ قطّ حول عدم زواجك، فأنت في النّهاية لست راهباً.

- إنّه نذر نذرته لربّي.

- الزّواج أمرٌ مقدّسٌ مثل المعموديّة، وقدّاس العشاء الرّبّاني، وغيرهما...

- كيف أجيبك؟ لا أظنّ أنّني أستطيع أن أخدم الرّبّ، وإلى جانبي امرأة.

فقال مغوندو ساخراً: «آ... إنّك قدّيس».

وقال نوا: «نوعٌ ظريفٌ من القدّيسين. إنّك لم تولد واعظاً، وقبل أن تصبح كذلك لم تكن هناك علامات على أيّ شيءٍ..».

تجمّد وجه أوبيي على تعبيرٍ من الازدراء. نظر إلى من يحدّثونه واحداً بعد الآخر، ثمّ قال لهم ساخراً: «أسامحكم لأنّكم لا تعرفون ما تفعلون...»، ونهض، فخرج إلى اللّيل.

- «لماذا تتحرّشون بالواعظ؟». قال أحدهم قلقاً.

- «هو الذي كان يتحرّش بنا». قال نتي: «إن لم يكن رجُلاً حقّاً، فالأفضل له ألّا يثير هذا الموضوع».

- «شيءٌ ثخينٌ كبيرٌ مثله». قال أحدهم ضاحكاً.

وقال آخر: «سمعت أنّه ليس لديه شيءٌ على الإطلاق».

- «صحيح. لا شيء على الإطلاق». قالت كيلارا: «على الرّغم من كرشه الكبير».

وضحك الجميع.

- «ليس كوُعّاظ البروتستانت». جاءت غمغمة أفينا: «هؤلاء -على الأقلّ- رجالٌ يستطيعون أن

يفعلوا شيئاً».

قال ميكا: «ذلك الملقّن الذي كان معي في المقرّ حدث له أمرٌ ظريفٌ».

قال آخر: «كنت على وشك أن أطلب إليك إخبارنا بالأمر».

- «تعرفون القصّة». قال ميكا، وهو يرجو لو يلحّون عليه.

صاح الجميع: «لا، لا نعرفها».

سعل ميكا، وتركّزت العيون كلّها عليه.

- قبل أن يتزوّج كان واعظاً في قرية صهري، وهناك أحبّ إحدى زوجات الزّعيم، ولم يجرؤ على الإفصاح عن حبّه، وكي يطرد هذا الشّيطان بعد أن سيطر عليه، صار لا يأكل إلاّ جسد الرّبّ([8]) الذي كان يبلّله في معدته بجرعات من الماء المقدّس. أفنى نفسه في الصّلاة والزّهد، وراح يعاقب نفسه بأسوأ العقوبات الجسديّة، ولهذا صار يقضي لياليه متكوّراً في سريره، والعَرق يسيح منه، وقد وضع إصبعاً على الأرض، ورفع قدماً في الجوّ، وذات يومٍ خرج يصطاد القرود بالقوس والسّهم، فقتل ربّاحاً،([9]) ثمّ عاد إلى القرية فرحاً، وفي الطّريق التقى، في أعماق الغابة، بالمرأة ذاتها التي كانت تتهدّد فضيلته، وعوضاً عن أن يهرب قدّم إليها جثّة الربّاح من دون كلامٍ، ثمّ استجمع شجاعته ليتكلّم: تستطيعين أن تقولي إنّك وجدته في شجرة. المهمّ أن تأخذيه، وبعدها فتّشي عن حجّة. وعندها بدأت زوجة الزّعيم تتصرّف كامرأةٍ، فأوضحت أنّ ما تقصده هو: أكمل، قلْ كلّ ما تريد أن تقوله. ولم يستطع الواعظ الاحتمال أكثر من ذلك فقال: تعرفين أنّ شفتيّ مقدّستان؛ لا أستطيع أن أقول لك: أحبّك، ولكنّ هذا (وأشار إلى أربيته)([10]) يحتاج إلى هذا (وأشار إلى أربية زوجة الزّعيم) حاجةً ماسّةً.

وقوطعت نهاية القصّة بعاصفةٍ من الضّحك.

قال أحدهم، وهو يشهق: «هذا اسمه كلام».

وقال آخر، وهو يتأتئ: «عمري لم أسمع عن كلامٍ مع امرأةٍ مثل هذا».

وقال مغوندو: «كان يعرف ما يريد».

وسأل نوا: «كيف سمعت بالقصّة؟»

قال صهري: إنّ شخصاً ما، يوثق بكلامه، هو الذي أخبره بأنّه سمع بأنّ هذا ما حدث.

وسأل أحدهم: «إلى أين سينتهي العالم؟ الناس يولدون ويموتون... وبعض الرّجال ليسوا رجالاً أبداً...».

- «والآن اتركوا أغناطيوس وشأنه». قالت كيلارا.

وعاد الجميع إلى الضّحك.

فقال الذي تكلّم قبلها: «كنت أتكلّم لأضع وجهة نظري في سؤال.. إلى أين سينتهي العالم؟».
وبادره آخر: «إن كان ما يقوله أغناطيوس صحيحاً..».

وبدأ النّعاس يتسرّب إليهم. تلقّف السّؤال ميكا وأصدقاؤه، فلم يعد هناك ضحك، ولم يعد أحدٌ يفكّر بالوسام.

- «إلى أين سينتهي العالم؟». قال ميكا بصوته الأجشّ، وهو يغرق في النّوم، وفي الخارج نعق طائرٍ ليليٍّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

صباح ذلك اليوم، وعلى بُعد جدولين، وأربع قرى، وثلاث غابات، وثلاثة أنهارٍ من دوم، في القرية الصّغيرة الّتي وُلدت فيها كيلارا في جذع شجرة موزٍ وسط هزيم الرّعد، كان أخوها انجامبا ينهي فَطوره، وكان يتألّف من قُرصين طريّين من الذّرة، وعجينة الخيار، وقطعة أفعى بائتة مطبوخة، وكان كلبه ذو اللّون الخاكي يراقبه، وهو يأكل، مقترباً بما يكفي لإبعاده عن مجال رفسة صاحبه، وكان صاحبه قد ألقى إليه بعض القشور المحترقة، ولكن حين وصل الأمر إلى قطعة الأفعى المحمّرة بزيت النّخيل عرف الكلب جولتان، من النّظرة في عيني صاحبه، أنّه لن تُتاح له فرصة ابتلاع أيّة نتفةٍ منها، ومع ذلك ظلّ يتابع بحركةٍ رياضيّةٍ غريبةٍ من رأسه. كان الرّأس ينخفض عندما تنزل يد صاحبه في الصّحن، ثمّ يرتفع تدريجيّاً، وهو يتابع ارتفاعاً يد انجامبا نحو فمه، وهكذا كان انتقال كلّ قطعةٍ من لحم الأفعى يتكرّر مرّتين، وعندما لحس انجامبا أصابعه ابتعد الكلب نحو المَوقد.

«يا له من كلبٍ شَرِهٍ!». قال انجامبا، وهو يتجشّأ، ورفع ذراعه مشيراً إلى الخزانة الخيزرانيّة حيث كان فيها دلوٌ عتيقٌ لم يعد يُستعمل كثيراً.

أطلقت زوجُه التي كانت تتحرّك في أرجاء البيت تنهيدةً قصيرةً، ثمّ اتّجهت ملبّيةً صوبَ القفير، وتناولت يقطينةً صُنعت على هيئة طاس، ثمّ غطّستها في الدّلو، فرجعت، والماء يقطر من يدها حتّى المرفق، وهي تمسك بالطّاس بين إبهامها وسبّابتها، وكانت تمشي بخطواتٍ قصيرةٍ، وهي تمدّ يدها الممسكة بالطّاس أمامها.

كان زوجها ينظر إليها، وهي تقترب منه من دون أن يراها. تناول طاس اليقطين بيديْه الغليظتيْن، وأفرغه بثلاث جرعات، وكان صوتها يعلو مع حركة تفّاحة آدم في رقبته، وانتظرته زوجُه إلى أن انتهى. ناولها الطّاس، ثمّ مسح فمه بظاهر كفّه. تجشّأ ثانيةً، وهو يحكّ -هذه المرّة- بطنه بإصبعه الصّغرى، وكانت تلك دلالة على أنّه أكل جيّداً.

وقال انجامبا لنفسه: «لمْ يقسمْ بيانغ الأفعى قسمةً عادلةً. إنّه لم يرسل إليّ أكثر من لقمة».

«الحقّ عليك». قالت زوجُه: «طالما أنّك كنت أوّل من رأى الأفعى، فقد كان عليك أن تجعل بيانغ يوافق على أن تقوم أنت بتقسيمها».

- «لا أريد أن أفقد الأصدقاء من أجل أمور كهذه». قال انجامبا، وهو ينهض.

هزّت زوجُه رأسها، فهذه الكلمات الأخيرة التي قالها انجامبا لم تكن تبدو متلائمةً مع الطّريقة التي تناول فيها فَطوره. كان يأكل قرب الباب، وراءه تقريباً، وبين حينٍ وآخر كان يطلّ ليرقب القرية، وهي تستيقظ.

كان المسيحيّون يعودون من الكوخ الّذي تحوّل إلى كنيسةٍ، وهُم متلفّعون بالبطّانيّات، أو بالملابس، فالذين كان لهم أقرباء في المدينة كانوا يلبسون فوق لحومهم معطفاً قديماً، أو سترةً، أو نوعاً من ملابس النّوم، فتبدو على نحوٍ محزنٍ غير متلائمةٍ مع هذه المخلوقات المتزيّنة بزنانير القطع المعدنيّة المقدّسة، أو بالأوشحة الكتفيّة، والسّبحات، وأحياناً بصليبٍ رصاصيٍّ كبيرٍ معلّقٍ من رقابهم بحبلٍ من ألياف الرّوطان.

عبروا الباحة، وهم يناقشون -بصوتٍ مرتفعٍ- أسرارَ الكنيسة، وعندما كانوا ينظرون في اتّجاه كوخ انجامبا كان يختبئ وراء الباب المصنوع من ألياف الرّافية، فقد كان يعرفهم حقّ المعرفة، إخوة الدّم والرّوح هؤلاء.

كان بينهم مبوغسي الذي تقدّس وإيّاه، ولقد ذهب الأخ الأصغر لمبوغسي إلى غينيا الإسبانيّة، ولم يمضِ على ذهابه عامان إلاّ وكان قد أرسل إليه معطفاً قديماً، وقبّعةً من الإسفنج، وساعة منبّهٍ، وكان مبوغسي يرتدي المعطف القديم كلّ صباحٍ يتوجّه فيه إلى الكنيسة، ولم يلبس القبّعة الإسفنجيّة إلاّ مرّةً واحدةً، كانت عندما ذهب لخطبة السّيّدة الّتي كانت تترأّس جمعيّة القدّيسة آن في القرية، وهي دودةٌ شريطيّةٌ عجوزٌ، لها رأسٌ مثل رأس الخفّاش، وبعد عشرين عاماً من القرفصة على كعبيه أمام انجامبا لمشاركته وجباته قرّر مبوغسي أن يتزوّج؛ كي لا يكون مضطرّا للاعتراف أمام القسّ قبل حلول الأعياد الكبيرة دائماً عن خطيئته الدّائمة من «الأفكار غير الطّاهرة» التي تراوده، ولكنّ الرّئيسة العتيقة لجمعيّة القدّيسة آن، التي بدأت تورّمات الشّيخوخة تظهر خلف أذنيها، وفي نقرتها (قذالها)، وفقدت أسنانها الأماميّة، رفضته، ووجد مبوغسي الرّاحة من التّعليقات العقيمة الموجودة في (الإنجيل المبسّط) الّذي كان يحمله معه أينما ذهب.

وعندما مرّ أمام بيت انجامبا دلّت التّعبيرات التي تتالت على وجهه على الجهد الذي يبذله كي يفهم لماذا لا يمكن توجيه النّداء إلى يسوع المسيح إلاّ بهاتيْن الكلمتيْن، وعندما مرّ أخفى انجامبا نفسه تماماً عن الأنظار وراء الباب.

«المهمّ ألّا يُجرجر كعبيه الكبيرين إلى الدّاخل». قال انجامبا لنفسه، وهو يتوقّف عن المضغ، وتردّد مبوغسي لحظةً، ثمّ بعد أن خَطا خطوةً إلى اليمين، وأُخرى إلى اليسار، دخل الكوخَ المقابل لكوخ انجامبا حيث كان الموز يُدق، الأمر الذي يؤكّد أنّ الفَطور جاهزٌ.

بعد أن فرغ الصّحن خرج انجامبا إلى الشُّرفة. دفع أصابعه في سقف الرّافية لإخراج نثرةٍ من الخيزران؛ لينكش بقايا الّلحم من بين أسنانه، وردّ تحيّات آخر الوافدين الذين كانوا مسرورين في طريق العودة من الكنيسة على مسافةٍ من المجموعات السّابقة الأكثر حيويّةً. أخرج نثرة الخيزران من فمه، واندفع الّلعاب المحمرّ مثل اندفاع الماء من مضخّةٍ، وكاد يُصيب الرّيش الملوّن لبطّتيْن كانتّا تتقاتلان قربه من أجل حشرة (أمّ أربع وأربعين).

وصدرت ضجّةٌ من الطّرف الآخر من القرية، وخرج انجامبا إلى الباحة، بينما وقفت زوجُهُ بالباب، وخرج مبوغسي من البيت المقابل، وقطعة عظمٍ بين أسنانه، ووقفت القرية كلّها متأهّبةً. كانوا يتنادون من كوخٍ إلى كوخٍ، وجاء عبر الباحة، وكانت ساقا بنطاله مدروجتين حتّى الفخذيْن، وكان يحمل حذاءً قماشيّاً مربوطاً من رباطه بعَصَاً معلّقةٍ على كتفه كالبندقيّة، وكانت مسحة الغبار المصفرّ التي تلوّث بنطاله الخاكي، ورزمة السّمك المقدّد التي يتأبّطها تبيّنان أنّه عائدٌ من المدينة، وكان قد جاء كأنّما في أعقابه أحدٌ، وبمشيةٍ متأرجحةٍ تذكّر براقصات هزّ البطن.

وسُئِلَ: «هل تحمل أخباراً سيّئةً؟ من مات؟».

فهزّ رأسه إنكاراً، وزاد في سرعة مشيه، وعندما رأى انجامبا توجّه إليه، وقدّم نفسه: «نكولومندو ابن مندو ونكولو من نغولمان».

- «أعرف. أعرف». قال انجامبا، وهو يشير إلى كوخه: «تفضّلْ. وعُدَّ كوخي بيتك».

دخل الرّجُل أوّلاً، وتنحّت زوجُ انجامبا لتسمح له بالمرور، وتوجّه الغريب نحو مكان الجرّة، عبّأ الطّاس بالماء، وبدأ يلعقه مثل كلبٍ. بدا عليه أنّه روى ظمأه، ونظر حوله بحثاً عن مكانٍ للجلوس، ثمّ جلس على أحد سريريّ الخيزران، ووضع رزمة السّمك المقدّد على الأرض، وإلى جانبها العصا والحذاء القماشيّ، ثمّ مسح شفتيْه بكفّه.

- «والآن ما الذي تُخفيه؟». سأله انجامبا متلهّفاً.

وتظاهر الرّجُل أنّه لم يسمع. اتّخذ وجهه سِمة الجدّيّة، وفي الوقت ذاته أظهر تعبيراً غامضاً. سحب رزمة السّمك المقدّد إلى ما بين ساقيْه، ثمّ عقد وحلّ عقدة ربطة حذائه القماشي، وفي هذه الأثناء، كان كوخ انجامبا قد بدأ يمتلئ، وكانت ثرثرات القرويّين تتوقّف عند العتبة حالما تلمس بواطن أقدامهم تراب الأرض في كوخ انجامبا، وتتركّز أعينهم على شفتي نكولومندو، وعندما لم يعد هناك متّسعٌ لأحدٍ، وحتّى لجولتان المسكين الذي أُخرِج مطروداً بالرّفسات من كلّ جانبٍ، رفع الغريب -الذي كان ما يزال يحدّق في رزمة السّمك المقدّد- رأسه نحو انجامبا، وحرّك انجامبا رأسه إلى هذه الجهة، ثمّ إلى تلك حول كتفيْه، ونظر وراءه، ثمّ واجه القسمات الهادئة في وجه نكولو مستسلماً.

- «آذاننا مشدودةٌ إليك». قال مبوغسي وهو ينظر حوله لنيل موافقة المجموع، واهتزّت الرّؤوس إلى الوراء وإلى الأمام، فتابع واثقاً من نفسه: «انجامبا هو نحن جميعاً، وليس هناك شيء يعنيه وحده. أحزانه وأفراحه – ثمّ نظر إلى أماليا زوج انجامبا- وزوجه تخصّنا كلّنا».

وعلّق أحدهم: «هذا صحيحٌ تماماً».

حكّ الغريب شفته السّفلى، وهزّ رأسه بالموافقة ناظراً إلى مبوغسي، وسحب زجاجة كافورٍ عتيقةً، فتحها وأخذ منها حفنةً من مسحوقٍ كستنائيّ اللّون، دفعه أعمق ما يستطيع داخل أنفه الذي كان أسود مشعراً، مثل جلد الغوريلا. امتلأت عيناه بالدّموع، ولكنّه بهزّةٍ عنيفةٍ من رأسه أرجعها، وقدّم الزّجاجة المفتوحة لمبوغسي، ثمّ حكّ أنفه بظاهر يده الفارغة، وحين أخذ مبوغسي حاجته مرّر الزّجاجة إلى جاره الذي مرّرها بدوره إلى الشّخص التّالي: «هذا السّعوط ممتازٌ فعلاً. منذ زمنٍ طويلٍ لم أتنشّق مثله». قال مبوغسي، وهو يفرك أنفه.

- «لقد نشط دماغي». قال آخر: «حتّى وجع أسناني زال».

تمايل الغريب، وحشر الزّجاجة في الجيب الخلفيّ لبنطاله. كان يتمهّل مماطلاً كي يبقي على تشوّق انجامبا وأصدقائه، وسأل:

- «هل الزّعيم بينكم هنا؟».

تسبّب هذا السّؤال في بعض الامتعاض، فمبوغسي الذي لم يستطع طوال عشرين عاماً أن يجلس إلاّ على كعبه ترك ردفيْه يهبطان على الأرض، ونظر إلى انجامبا الذي كان يرتعش، ثمّ سأل الغريب:

- هل الأمر مهمٌّ بهذا المقدار؟

- نعم ولا. لديّ أسبابي لهذا السّؤال.

نهض انجامبا، ومضى إلى وسط الكوخ.

- الأمور كما هي عليه. هناك من هو مسؤولٌ عنها، وهي تسير كما يجب. واتّكأ على العمود الذي يسند سقف الرافية، وتابع حديثه من دون أن يقول شيئاً...

- إذا تكلّمت الأشباح هطل المطر ليلاً، وإذا طلبت إليك أن تخفض صوتك فهذا لأنّ هناك عدوّاً.

- صحيح.

أجابه ثلاثون صوتاً غليظاً اجتمعوا في كوخ انجامبا.

قال أحدهم: «انجامبا حكى الصّدق».

وقال آخر: «نعم. هذه كلمات إنسانٍ آدميٍّ».([11])

وعاد انجامبا إلى مقعده، وأراد مبوغسي أن يأخذ مكانه عند عمود الكوخ، فأوقفه أحدهم: «اِجلس. أيّ نوعٍ من الأوادم أنت؟ كلّما سمعت صوت الطّبول تسارع إلى المآدب الّتي لم تُدْعَ إليها، هل ستكونُ شَرِهاً للكلام أيضاً؟».

قال مبوغسي: «انجامبا أخي، فنحن من عائلة أمومةٍ واحدةٍ، أمّه وأمّي من قبيلة بينز، وكلّ ما يعنيه يعنيني أيضاً. إنّ فينا الدّم ذاته، وأستطيع أن أحكي باسمه، ثمّ قل لي: هل سبق لي أن أكلت في بيتك؟ هل أكلت؟». وعَلا صوته.

- «اهدأ». زمجر انجامبا، وهو يعود إلى عمود الكوخ: «لا تبدأ ألاعيبك السّحريّة هنا. إنّ لدى الغريب خبراً لي، ولم نعرف بعد ما هو، ومع ذلك فإنّكم تثيرون هذا اللّغط كلّه. ما الذي ستنتهي إليه هذه القرية؟».

وعاد انجامبا إلى مقعده تتبعه همهمةٌ موافقةٌ.

وقال آخر: «أيّها الغريب، هل جاء دورك في الكلام؟».

- «إنّه دوري». قال نكولو وهو ينهض، وبعد توقّفٍ قصيرٍ تابع يقول: «الأمور كما هي عليه... يوم أمس مشيت تحت الشّمس اللّاهبة، وتحدّيت أرواح الّليل كلّها كي أجلب لكم النّبأ الذي ما أزال أحمله في سرّي، ولذا فإنّه من العبث إعطائي الدّور للكلام. إنّني قادمٌ من دوم، وما رأيته وسمعته هناك لا يُحكَى. لقد ذهبت إلى هناك لبيع بعض الكاكاو، وكان حموّا المستقبل قد طلبا إليّ بعض السّمك المدخّن كي أتمكّن من الزّواج من ابنتهما حسب الأصول. لقد أعطيتهما حتّى الآن ثلاثين ألف فرنك، وصندوق بيرة، وقبّعة ليف، وكيساً من الملح، وثلاثة مناجل، وثلاث غنمات، وسطل ماء، وقِدْراً من الحديد الصّلب، وكيساً من الأرزّ، ولم يتبقّ إلاّ السّمك المدخّن».

المهمّ أنّني ذهبت لبيع الكاكاو لليونانيّين الذين يسرقوننا دائماً، وعندما وصلتُ إلى دوم أحسست أنّ الجوّ فيها ليس كعادته، كلّ ما رأيته فيها كان يبدو عليه أنّه ينتظر شيئاً ما؛ كان المساجين يملؤون الشّوارع، وهم يضعون أقواس النّخيل على معابر الطّرق، والشّاحنات المعبّأة بالجنود المسلّحين بالبنادق تعبر المدينة مسرعةً في اتجّاه مكتب الحاكم العسكري. تعرفون أولئك

الجنود الذين جاؤوا من الغابون، إنّهم سودٌ مثل قفا القِدر، ورؤوسهم مثل خصي الخِرفان، وأسنانهم كأسنان المنشار، وكان هناك أيضاً جنودٌ بِيض، وأنتم لم يسبق لكم أن رأيتم جنوداً بيضاً.

وهمهم مبوغسي: «حرب! حرب! اشتعلت حرب. اشتعلت حرب. كنت أعرف أنّ الألمان لن ينهزموا بهذه السُّهولة..».

قال هذه الكلمات كلّها من دون توقّفٍ، أو التقاط نفسٍ، وهو يلوّح بذراعيه...

وكان الجميع يراقبونه، وقد رَعبتهم كلماته التي كانت كافيةً لقلب مِعَد فلّاحي زوريان المسالمين هؤلاء.

- «هذا ما ظننته أوّل الأمر». قال الغريب.

والتفت إليه الجميع، فقد كان هناك ذعرٌ قذرٌ يملأ نفوسهم.

- «هذا ما ظننته أوّل الأمر». كرّر القول ثمّ أضاف: «ليس هناك داعٍ للقلق. الحقيقة أنّ دوم مضطربةٌ؛ لأنّ زعيم البِيض ليس ذلك الذي يعيش في تمبا، بل في باريس، سيأتي بنفسه، هو بعينه وليس شبحه، وليس نائبه، وليس بديله. سيأتي إلى دوم ليمنح وساماً ل...».

- «ميكا». هتف انجامبا: «ميكا. صهري. أليس كذلك؟ كنت أعرف. ليلة أمس حلمت أنّني أكبر من الفيل».

أمسك بالغريب من ذراعيْه، ثمّ دفعه على طولهما لينظر إليه، ثمّ أحاطه بهما، وأطلقت أماليا أعلى صرخة ابتهاجٍ استطاعت تدبيرها، وهي تدور بجسمها حول نفسها.

وفي الخارج بدأت «فاتنات» أُخريات يهتفن ردّاً عليها، واندفعت خارجةً من الكوخ، وبدأت ترقص وحدها في الباحة، وسرعان ما أحاطت بها «الفاتنات» اللّواتي جئْن من كلّ صوبٍ خارجات من الأكواخ المدخّنة، ومن طرف القرية إلى طرفها، ومن آلاف الممرّات الّتي تتقاطع بين الشّجيرات خلف الأكواخ في القُرى، وتؤدّي إلى النّهر، أو إلى الحقول.

أمّا الرّجال فكانوا ما يزالون في الكوخ مع انجامبا والغريب، وعندما عاد الهدوء بدأ حديثه مجدّداً: «صهرك الآن مشهورٌ شهرة الحاكم العسكريّ في دوم، ويخجلني أن أقول إنّني لم أعرفه، ولكن عندما أخبروني أنّه متزوّجٌ بامرأةٍ من ناحيتنا فكّرت بكيلارا فوراً. أظنّ أنّها المرأة الوحيدة من ناحيتنا هذه التي تزوّجت شخصاً قريباً من المدينة. ستصير الآن امرأةً بيضاء بعد أن يأخذ زوجها الوسام».

- «ضرائب الشّغل والمزعجات الأخرى كلّها عليه». قال انجامبا شارداً: «لقد جاءه الحظّ بالتّأكيد..».

- «وأنت هنا». قال مبوغسي: «إن حدث لك أيّ شيء فما عليك إلّا أن تخبر الحاكم العسكريّ إنّكم صهر الرّجُل الذي جاء الزّعيم الأبيض ليمنحه وساماً...».

- «نعم. هذا صحيح»، قال الغريب: «عائلتك، وأصدقاؤك، وأصدقاء أصدقائك سيكونون من الآن فصاعداً من ذوي الامتيازات. ليس عليهم إلّا أن يقولوا:

أنا صديقٌ لصديق صهر ميكا، وستُفتح الأبواب لهم. حتّى أنا نفسي أحسّ أنّني نلتُ «رشفةً» صغيرةً من الوسام...».

«ونحن أيضاً. ونحن أيضاً». هتف البقيّة: «فنحن زوّجناه كيلارا...».

والتمع وميضٌ من الحسد في عيون أصدقاء انجامبا، فمن وجهة نظرهم كان قد اكتسب الآن أهميّةً، وقد بدا سعيداً للشّهرة الّتي أصابها ونزلت عليه من السّماء، وطالب بأن تُعاد القصّة كلّها عليه بما جرى فيها كلّه في دوم.

- «من المؤسف أن يكون الرّابع عشر من تمّوز/يوليو بعد غد. كان من الممكن أن أقصد الجداء التي أُربّيها على بُعد ثلاثين كيلومتراً؛ إذ ليس لديّ ما آخذه لصهري إلّا فحلي العجوز، وهو الحيوان الوحيد الذي أبقيْته في القرية».

ووعده أحدهم بدِيكٍ، وآخر ببطّة، وثالث بزجاجةٍ من خمر البلح.

وقال انجامبا لنفسه: «آه لو أنّهم يفون بوعودهم». وفيما كان يتأسّف لذكره فَحله العجوز، فإنّه آسفٌ أيضاً؛ لأنّ الكذب الاعتياديّ لا يُعدّ خطيئةً قاتلةً، فلو كان كذلك لضَمِنَ أنّه سيحصل على الأشياء الّتي وعده بها.

وعندما وجد أبناء القرية أنّه لم يعد لدى الغريب ما يحكيه لهم ممّا يثير اهتمامهم انسربوا واحداً بعد الآخر إلى أن ظلّ انجامبا وحده مع نكولو. قدّم إليه قطعةً من لحم الفيل المملّح، وشيئاً من المنيهوت لفّتها آماليا بورقة موزٍ، أمّا نكولو ففكّ ربطة سمكه المدخّن، ووضعه في الوعاء الذي يُقدّم إليه، ثمّ شدّ الرّبطة، ووازنها على رأسه، ومشى معه انجامبا حتّى طرف القرية المحاذي لضفّة النّهر الذي يرسم حدود قبيلته وبداية حدود قبيلة بيميمياس التي ينتمي إليها نكولو.

وعندما آن أوان الوداع قال انجامبا: «الصّديق أكثر أهميّةً من الأخ. سيظلّ كوخي مفتوحاً لك، وكلّما مرّ طريقك من أمام شرفة بيتي عليك أن تتوقّف لتتناول شيئاً من الطّعام، أو لاتّقاء حرّ الشّمس حتّى لو لم أكن في البيت».

وأنزل نكولو رزمته إلى كتفه، وهو يقول: «لقد التقيت بمن هو أعزّ من الأخ، وإذا قادتك قدماك ذات يومٍ إلى نغولمان، فإنّك ستحتسي خمرة بلحٍ ممتازةً، وعندها فإنّ الخمرة بدورها ستشربك. إنّ لدى زوجتي الثّالثة أسلوبها البارع، وسوف تدفئ ظهرك...».

تصافحا، ووقف انجامبا يرقب نكولو، وهو يتدحرج في مشيته، وارتعش قليلاً، وهو يتمايل على اللّوح الممدود فوق النّهر الصّغير، ولكنْ لم يحدث شيءٌ ذو بال، وعندما وصل نكولو إلى الضّفّة الأُخرى لوّح كلٌّ منهما للآخر.

- «حفظك الله». هتف نكولو.

- «مع السّلامة». أجابه انجامبا.

وعاد انجامبا إلى القرية. كان في البداية يمشي غارقاً في أفكاره، وهو يحدّق في المرج الذي تتلوّى فيه الطّريق، وبعد ذلك نظر إلى الخلف. كانت الشّجيرات النّامية على الضّفّة الأُخرى قد غيّبت نكولو، وأحسّ بغصّةٍ صغيرةٍ في قلبه، فهزّ كتفيه، وتلك كانت الحركة التي يقوم بها عادةً لمنع نفسه من الانجرار مع عواطفه. لم يكن يعرف نكولو معرفةً خاصّةً، ولكنّه كان يحسّ أنّ بني

نغولمن كلّهم أصدقاؤه، وتأسّف لأنّه لم يطلب من نكولو أن يقضي اللّيل عنده، ولكنّه تذكّر أنّ نكولو، وهو متعدّد الزّوجات، لن يكون سعيداً بالنّوم في سرير الخيزران الآخر الذي ينام عليه جولتان، وتذكّر زوجه أماليا. معها كان يعانق الكاثوليكيّة.

وتغضّن جبينه بحزنٍ لم يستطع تحديده، فتذكّر الأيّام الخوالي التي ورث فيها أباه؛ كان يومها غنيّاً، وكانوا في زوريان يضربون المثل بغناه «غنيّ مثل انجامبا»، فحين تُوفّي أبوه خلّف له ستّ زوجاتٍ فتيّاتٍ إضافةً إلى أمّه، وفي ذلك الحين كان لكيلارا ثديان صغيران، وقد اعتاد انجامبا أن يقضي نهاره في كوخ الضّيافة، وهو جالسٌ إلى جانب إحدى زوجاته ليناقش إحدى آلاف المشكلات التي تملأ حياة إفريقيٍّ متعدّد الزّوجات.

كانت حياةً رخيّةً ممتلئةً بالاسترخاء؛ فالتّنافس بين الزّوجات كان كلّه لصالحه فقط، ولم يكن يخطر في باله في تلك الأيّام أنّ البِيض بديانتهم سوف يعكّرون عليه سعادته، وكان يستطيع تذكّر ذلك الصّباح الذي جاء فيه أوّل قسٍّ أبيضَ إلى زوريان. راح يتحدّث عن الخطايا الفادحة، وعن الجنّة، وكانوا يصغون إليه؛ لأنّه لم يكن لديهم شيءٌ آخر يفعلونه، ثمّ اختلفت الأمور عندما بدأ يتحدّث عن الزّواج المسيحيّ، فالنّساء اللّواتي كنّ حتّى ذلك الحين مقيّدات مثل عنزاتٍ مربوطةٍ إلى عمودٍ قديمٍ، استفدنَ ممّا قاله ليطالبن بحريّتهنّ من خلال المعموديّة، وحين أدرك انجامبا الخطر «والشّرشحة» اللّذيْن ينتظرانه تصدّر الحركة بأنْ غيّر دينه، وكانت أماليا الوحيدة بين زوجاته التي رضيت أن تتزوّجه في الكنيسة، ويوم زواجهما تحدّث القسّ عن عمليّة الرّوح القدس، وألقى موعظته بوجهٍ محمرٍّ، وعينين برّاقتين، حول انتصار الدّيانة الكاثوليكيّة في تلك البلاد التّائهة التي كانت رحمة الله تخطو خطواتها الأولى فيها إلى قلب انجامبا، أوّل الوثنيّين المهتدين.

ولم يصادف نكولو حظّاً سيّئاً كهذا، فلديه الآن خمس زوجات، وهو على وشك أن يكسر أرْجُل الظّبي للمرّة السّادسة.([12])

- «يا لَلشّيطان المحظوظ!» هتف انجامبا، وهو يرفع ذراعيْه إلى السّماء.

وسرعان ما قاده تفكيره إلى ميكا. كان في مثل عمره تقريباً، ولقد كان يعرف كيلارا منذ كانت في السّنّ التي تلعب فيها الفتيات عاريات، وكان يمرّ بزوريان في طريق عودته من تفقّد تلك الأرض التي خلّفتها له أخته الكبرى، وفي ذلك الحين كان والد انجامبا أقوى رجُلٍ في زوريان، وكان منزوله([13]) مبنيّاً وسط السّاحة العامّة تماماً، بحيث إنّ أيّ إنسانٍ يسير في الطّريق التي تتجاوز زوريان لا بدّ له من أن يمرّ فوق ساقيه الممدودتين والمسندتين إلى ظهر إحدى زوجاته، وكان كلّ غريبٍ يشاركه في أكوابٍ من خمرة البلح التي كان يجلبها له أحد العبيد كلّ صباح.

وحسب ما يكون الغريب قويّاً، أو ضعيفاً، كان يصادقه، أو يستعبده، وعندما مرّ ميكا بزوريان أدرك والد انجامبا أنّ ابن مغما هذا القادم من دوم رجُلٌ وراءه عزوة، وكان على استعدادٍ دائمٍ لاستمالة أنداده، فدعا كيلارا التي كانت ما تزال طفلةً ذات بطنٍ منتفخٍ، وجعلها تجلس في حضن ميكا.

- «هذه زوجُك». قال له: «تستطيع أن تأتي وتأخذها حين يئين أوانها». وهكذا أصبح ميكا صهراً لانجامبا، والآن فإنّ ميكا سيُمنَح وساماً، وممّن؟ من زعيم البِيض، البيض كلّهم! بالنّسبة إلى انجامبا كان هذا يعني الشّخص الذي هزم الألمان. لا بدّ من أنّه زعيمٌ حقيقيٌّ، ولا بدّ من أنّه قد

عرف ميكا، أو سمع عنه بشكلٍ من الأشكال. إنّ ميكا شخصٌ ذو جدارةٍ بالفعل، ولقد اجتازت سمعته البحار حتّى وصلت إلى مسامع زعيم البِيض، فقرّر أن يأتي بنفسه ويُظهر صداقته، وربّما جلب إليه معه زوجةً بيضاء، وحتّى زجاجات من البيرغر، المشروب الذي لا يُباع لأبناء البلد إطلاقاً.

- «يا للشّيطان المحظوظ!». هتف، وهو يرفع ذراعيْه نحو السّماء.

أليْسَ صديق الزّعيم زعيماً بذاته بشكلٍ ما؟ أيّ مستقبل غريب ينتظر ميكا! من المزارع البسيط الذي كانه، سيكون شخصاً ذا شأنٍ بين البيض، وسيكون الإفريقيّ الوحيد الذي سيمرّ أمام مكتب الحاكم العسكريّ من دون أن يرفع قبّعته، وعوضاً عن أن يفعل ذلك أمام البيض سيكون عليهم هم أن يرفعوا قبّعاتهم أمامه.

- «يا للشّيطان المحظوظ!». ورفع ذراعيه مرّةً أُخرى إلى السّماء.

بغتةً أحسّ انجامبا بالسّعادة. حجل على إحدى قدميه، ثمّ نزل على القدم الأُخرى، وطقطقت عظامه. وضع يديه خلف ظهره، ثمّ بدأ يهزّ رأسه، ولم يكن من الممكن أن يحسّ بأنّه أكثر أهميّةً ممّا هو عليه الآن.

- «إنّه صهري ميكا، وأنا ابن حميه. أنا الذي صهره رجُلٌ يحمل وساماً!».

ودحرج نفسه.

- «أمسكت قدمك». هتف مغومو الذي لم يكن قد انتبه إليه، وكان مغومو شبه عارٍ، وقد تنكّب قوسه. كانت هذه الكلمات تعني أنّه ممتلئٌ بالإعجاب.

وردّ انجامبا: «إنّني أستبق الاحتفالات التي تنتظرني في دوم. من المؤسف أنّني قد كبرت. أنت تتذكّر الماضي عندما كنّا شباباً، وكان في وسعك أن ترقص طوال الأسبوع من دون أن ينالك التّعب؛ أمّا اليوم فلا أستطيع تسلّق منحدرٍ صغيرٍ إلاّ وأحسّ بأنّني أكاد أموت».

- «الشّغل والسّعي من أجل اللّحم. هذا ما يجعلنا نشيخ». قال مغومو: «المهمّ متى ستذهب إلى دوم؟».

- «الرّابع عشر من تمّوز/يوليو بعد غد، لذا سأذهب هذا المساء عندما تبرد الشّمس قليلاً. سأرحل ليلاً؛ لأنّه من الصّعب أن تجرّ فحلاً في الحرّ، وأتوقّع أن أعود بعد الاحتفالات إذا لم تصرّ كيلارا وزوجها عليّ للبقاء».

- «أنت محظوظ؛ ستأكل غداً لحم البقر. إنّني أكاد أنسى طعمه، والقرود صارت نادرةً. سأتخلّى قريباً عن قوسي».

ولم يعرف انجامبا ما يقول. قام بحركةٍ غير مفهومةٍ، ثمّ ألقى بنفسه بين ذراعي مغومو مودّعاً، وتعانقا.

- «أبعد الله عنك الشّرّ». قال مغومو، وهو يشدّ على ذراعه.

- «شكراً». قال انجامبا بصوتٍ مرتعشٍ، وهو يشدّ بدوره على ذراعه.

ونزلت الأيدي إلى السّواعد، ثمّ تماسكت الأكفّ، وبعدها انفصلا. اختفى مغومو مثل قردٍ ضخمٍ

داخل الدّغل، بينما اتّجه انجامبا إلى ما وراء كوخه.

كانت الرّافية تطقطق تحت حرارة أيّام الشّعرى([14]) في نهاية فصل الجفاف، والمزارعون كلّهم قد خرجوا مبكّرين من أكواخهم للمسارعة في رشّ البذار وإنهائه قبل نزول زخّات المطر الأولى، وكان بعض الأطفال المهملين يبكون في ظلال الشّرفات، وفي يد أحدهم قطعة من الموز، ونثرة عظْمٍ في الأُخرى، وكانت العنزات متجمّعةً تجثم في السّاحة العامّة تحت المظلّة التي يُجفّف فوقها الكاكاو، وكان ضوء الشّمس ينزل في مربّعاتٍ وخطوطٍ على جلودها، فيجعلها تبدو مثل فهودٍ تحمل قروناً.

نظّف انجامبا أنفه بطرف ثوبه، وطرد جَدْياً كان يحكّ نفسه بجدار كوخه، ثمّ دخل.

كانت أماليا تنتقل داخل الكوخ. لقد أعدّت سلّةً كبيرةً ووضعتها في الوسط، وعندما دخل انجامبا كانت ملأت ربعها بالفول السّوداني، ثمّ وضعت أربعة أقراط موزٍ، وما تبقّى من خرطوم الفيل المدخّن، وبعضاً من كعك الذّرة، وزجاجتيْن من خمر البلح، وأربع قطع من قصب السكّر، وبرتقالتيْن، وبعض أوراق التّبغ.

وكان جولتان، الذي أقعى على ساقيه الخلفيّتين يرقبها، وعلى وجهه تعبيرٌ من الدّهشة، وعندما دخل صاحبه انسلّ تحت السّرير.

- «لماذا لا تذهب للإمساك بالفحل؟». سألته آماليا.

صفّر انجامبا من بين أسنانه بانزعاج، وقدّمت له زوجُه عرنوس ذرة، فنادى جولتان الذي تكوّر خائفاً تحت السّرير.

- «اخرج!». زمجر انجامبا، وهو يرفع السّرير.

واندفع الكلب خارجاً إلى السّاحة، وذهب انجامبا إلى المسطّح([15]) حيث كان القسم الأعظم من مواشي القرية متجمّعاً. أبعدَ المواشي ليرى إن كان فحله بينها، وتفرّقت الحيوانات، ولكن إيبوغو لم يظهرْ.

إيبوغو هو الاسم الذي كان قد أطلقه على فحله، وكان فحلاً أبيض، بلحيةٍ سوداء، وقرنيْن مكسوريْن، وقد أُعطِي إليه عندما تزوّج ابنه بالمعموديّة – وقد أصبح الآن واعظاً- على بُعد يومٍ من زوريان.

وكي يعوّده على كوخه أبقاه في الأيّام الأولى مربوطاً إلى عمود الكوخ، وعندما ملّت أماليا من كنس الزّبل من تحته، وعَدّت أنّه قد اعتاد على البيت أخرجته، ولهذا فإنّ إيبوغو يظلّ مشتاقاً إلى بيت صاحبه، ولا يبرح ظلال الشّرفة.

وفي البدء كان انجامبا سعيداً؛ لأنّ هذا الفحل قد أحبّه، وقد أعطاه هذا الاسم، وهو اسم الزّوجة الفتيّة، وهي الأخيرة في سلسلة النّساء اللّواتي ورثهنّ عن أبيه، وإيبوغو هذه التي كانت تحمل لانجامبا من المشاعر ما تحمله الفأرة للهرّة، كانت تعيش بانتظار اليوم الذي سيحرّرها فيه القسّ الأبيض من الرّجُل الذي تكرهه.

وسرعان ما صار إيبوغو الفحل مصدر إزعاج، وكان انجامبا يجده أحياناً يجترّ فوق سريره الخيزراني، وكان يرى الأمر طريفاً في البداية، وذات ليلةٍ قامت زوجُه بدفعه بعيداً عنها، وقالت

له إنّ رائحته كرائحة الفحل، ويومها تشمّم انجامبا تحت إبطيه بينما إيبوغو ينتظر، وعيناه تلمعان في الظّلّ. قفز من السّرير كالمجنون، وقذف بإحدى حجرات الموقد نحو إيبوغو الذي لم ينتظر أكثر من ذلك، ومنذ ذلك الحين صار ينزوي في الطّرف الآخر من القرية حيث صار يعيش مع عنزات مغومو.

وصعد انجامبا ساحة القرية مرّةً أُخرى، وهو ينادي جولتان، وتبعه الكلب على بُعدٍ معقولٍ مثل زوجة صينيٍّ، وراح انجامبا ينادي إيبوغو بأعلى صوته، وبعد ساعةٍ لمح الحيوان يخرج من مزرعة كاكاو، وهو يطارد عنزات، وعرف جولتان واجبه، فوقف في طريق الفحل، وهو ينبح، وألقى انجامبا بعض قصلات الشّعير، ولكنّ الحيوان كان مهتاجاً، فلم ينتبه إليها، وانتظرت العنزات على مقربةٍ وهُنّ يُمأمِئن، واقترب انجامبا أكثر، فاندفع الفحل في الثّغرة القائمة بين جولتان وصاحبه، وأطلق انجامبا شتيمةً، بينما راح جولتان ينبح، وردّ كلبٌ آخر على النّباح، ثمّ مجموعة من الكلاب، وسرعان ما صار انجامبا مُحاطاً بزمرةٍ منها.

«شكراً يا جولتان». قال وهو يبتسم للكلب، واندفع جولتان وزملاؤه وراء الفحل، وتبعثرت العنزات، وقد أحسّت بالخطر، في كلّ اتّجاهٍ تاركةً الذّكَر وحيداً، وسرعان ما رأت الكلاب إيبوغو، كان متشبّثاً بمكانه، وراقب انجامبا ساقيه الخلفيّتين، ومدّ ذراعيه إلى الأمام، بينما كان الفحل يُواجه قسماً من زمرة الكلاب، وخَطا زوجُ أماليا خطوةً، ثمّ أمسك السّاقيْن الخلفيّتيْن للفحل، وبدأ إيبوغو يرفس ويثغو، وتشبّث به انجامبا، ثمّ جرَّه نحو كوخه بينما كان جولتان وزملاؤه الكلاب يمسكون به من كشحه، وخرجت أماليا بحبال ليف الرّاتان، فقيّدا إيبوغو إلى عمود الكوخ.

وحاول انجامبا استعادة أنفاسه، فمسح كفّه على وجهه، وشرب كوباً من الماء، بينما كان لسان جولتان يتدلّى بين ساقيه، وكان إيبوغو قد توقّف عن شدّ الحبل، وراح يجترّ.

انحنت أماليا تحت السّلّة التي تحملها، ووقفت وسط السّاحة، وهي تعطي تعليماتها الأخيرة لجارتها منجي. قالت صارخةً: «افتحي الباب كلّ مساءٍ للدّجاجات». وقالت منجي: «ولا تنسي أن تشتري لي النّفتالين وذيل الثّورة».

- «لن أنسى».

سأفعل كلّ شيءٍ كما لو كنت هنا.

وسألت منجي: «وماذا ستفعلين بجولتان؟».

ولوت أماليا ظهرها بحيث رفعت السّلّة إلى أعلى، وصفّرت بانزعاجٍ من بين أسنانها، وحوّلت عنقها المحنيّ بالثّقل قدْر ما تستطيع في الاتّجاه الذي كان الكلب فيه منزوياً عن سيّده الذي يودّع الآخرين، وعندما سمع اسمه رفع أذنيه، وسار في اتّجاه سيّده.

- «ألن تأخذيه معك؟». سألت منجي.

- «في المدينة سيّارات كثيرة». قالت أماليا: «والبِيضُ لا يكترثون بحيواناتٍ مثله. ألا تستطيعين الانتباه إليه؟».

ونادت منجي الكلب، وبطواعيّةٍ تبع سيّدته الجديدة.

كان انجامبا واقفاً يقوم بتوديعاتٍ لا تنتهي، ورمحه في يده. ابتعد متّجهاً نحو جماعةٍ من القرويّين المجتمعين في السّاحة، ثمّ ابتعد عنهم، وعاد من جديدٍ.

وقال له مبوغسي: «ستخبرنا بكلّ شيءٍ عندما تعود، سنكون في انتظار عودتك».

وقال آخر: «أنا أقول إنّه سوف يأكل مع زعيم البيض. لا شكّ أنّه سيدعوه إذا دعا صهره».

وصدرت عن الحشد همهمة حسدٍ، وشدّ انجامبا على أيديهم جميعاً، وكلٌّ منهم شدّ على يديه، دفعوه ودفعهم واحداً بعد الآخر، وبعدها توجّه ليفكّ إيبوغو.

بدأت ظلال الغابة تملأ السّاحة، وبدأت ببّغاوات المساء تطلق أصواتها في الجوّ، وهي تعبر القرية، وكان انجامبا الذي يسير ورُمحه بيد، وباليد الأُخرى حبْل الفحل يتمنّى أن يتوقّف مرّةً أُخرى للتّوديع، ولكنّ الفحل شدّ الحبل، فانشدّ انجامبا مرغماً، وأرخت الخطوة الأولى التي خطاها ثوبه الذي كان محشوراً بين إليتيْه، فكشفت الفتحة الموجودة في ظهر سترته الخاكي عن سنّ الفهد الكبيرة التي كان يربطها حول خصره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

لم يكن نكولو يكذب؛ الجوّ في دوم قد تغيّر فعلاً. لقد كان الرّابع عشر من تمّوز/يوليو صاخباً وزاخِماً مثل حفل ختانٍ، ولا يشبه أبداً أعياد الرّابع عشر من تمّوز/يوليو في السّنين السّابقة، والتّوتّرات الّتي سادت الاستعدادات هي الّتي أدخلت فكرة الحرب إلى عقول الإفريقيّين، وانتشر الذّعر عندما راحت الشّاحنات المحمَّلة بالجنود المصفرّين من الغبار تعبر المركز التّجاري مسرعةً، وتتّجه صعوداً نحو مكتب الحاكم العسكري.

وراح الإفريقيّون يهمهمون مذعورين: «عادت الحرب! عادت الحرب!».

تذكّروا الأيّام السّوداء التي كانت فيها هذه الشّاحنات ذاتها المحمّلة بالجنود تَعبُر البلاد للمشاركة في القتال في أرض الرّجُل الأبيض، حتّى أضعف المراقبين ملاحظةً كانوا قد ارتبكوا أمام حقيقة أنّ البيض الذين كانوا في تلك الأيّام قد توقّفوا عن التّبختر المعهود بصدورٍ يدفعها الإحساس بالأهميّة إلى الأمام، هُم الآن يتصرّفون على عادتهم من دون أن يتغيّروا. كان الجميع يتحرّكون باسترخاءٍ، وهُم يرون المساجين يملؤون الشّوارع، وهُم يرفعون الأقواس من أوراق النّخيل، ويعلّقون عليها الأعلام.

كان السّيّد فوكوني المتصرّف العام، الذي وصل مؤخّراً إلى دوم، يريد أن يجعل من هذا اليوم القوميّ الذي يتصادف مع وصول الحاكم مناسبةً رائعةً، وكان يقود مجموعةً من الجنود يتدرّبون في الشّوارع من أجل الاستعراض.

وراحت الموسيقا العسكريّة التي لم يسبق لها أن سُمِعَت في دوم أيّام السِّلم تهْدر وتثير الرّهبة لدى السّكّان، وضباع الجوّ: الطّائرات والعقبان، أقلقتها هذه الضجّة غير العاديّة الّتي تملأ دوم، فراحت تحلق أعلى ممّا اعتادت.

وكان فوكوني يُشرف على الأمور، وهو بقميصه ذي الأكمام. إنّ احتفالات الرّابع عشر من تمّوز/يوليو ستتمّ أمام مكتبه، وفي السّاحة العامّة كان المساجين يعلّمون بالدّهان الأبيض الأماكن التي ستقف فيها المجموعات المختلفة، وفي مكانٍ غير بعيدٍ عن القبّة التي يرفرف عليها العَلم رُسِمَتْ دائرةٌ تدلّ على المكان الذي سيقف فيه من تُعلَّق لهم الأوسمة، وحين تمّت الاستعدادات كلّها فرك فوكوني يديه، وألقى بعقب لفافته، فتلقّاه أحد المساجين بينما توجّه فوكوني إلى سيّارته، ثمّ ألقى نظرةً أخيرةً من النّافذة على الخطوط والعلامات المرسومة على الأرض، التي كان قد أمر بها منذ قليل، ثمّ انطلق يهدر بسيّارته.

وقال لنفسه: «ما يهمّ هو ألّا تُمطر غداً».

كان فوكوني من أوائل الأوروبيّين الذين يصعب على الإفريقيّين تقدير أعمارهم، وقد ظلّ يُعَدُّ متصرّفاً شابّاً إلى اليوم الذي سرق فيه ابنه الأكبر فكّه الصّناعيّ، فتدلّى أنفه من منتصف وجهه المنتفخ الذي جعلته الشّمس أحمر مثل قفا السّعدان. إنّ مزاجه حادٌّ دائماً عندما تكون مَعدته فارغةً، ولكنّه يهدأ بسرعةٍ بعد كأسٍ من الويسكي، وكان يعيش مع امرأةٍ إفريقيّةٍ تعوّد أن يخبّئها في المخزن في القبو عندما يأتيه ضيوفٌ بِيض، وفي اليوم السّابق لزيارة الحاكم أرسلها إلى القرية.

وعندما عاد فوكوني إلى المقرّ كان المنظّف قد أحضر له بدلته البيضاء، فانتزعها من يدي

خادمه، وقلّبها مرّةً بعد أخرى، ثمّ شمّها وصاح: «قلت له ألّا يهرّئ هذه السّترة الكتّانيّة بالنّشاء.. الحقير البليد!».

ومرّت عيناه فوق رأس خادمه، ثمّ عبر ستارة الباب المنقّوشة كانت تنتظره على الطّاولة زجاجة ويسكي. هدّأ غضبه، وفقد اهتمامه بالسّترة البيضاء.

وانشغل بمتابعة البرنامج الذي أعدّه للاحتفالات حين سمع نقرةً على الباب.

هتف: «من هذا؟».

أُزِيحَت السّتارة، وتقدّم إفريقيٌّ يمسك بقبّعته، ثمّ انحنى، وقال بابتسامةٍ عريضةٍ: «المشروبات يا سيّدي، المشروبات فقط...».

نحّاه فوكوني جانباً، وخرج إلى الشّرفة. عند أسفل الدّرج كان يقف خمسة عشر إفريقيّاً، اثنان منهم يترنّحان تحت ثقل أقفاصٍ كبيرةٍ، وأشار الرّجُل الّذي قرع الباب إلى الثّلاثة الأوائل بقبّعته: «شمبانيا»، ثمّ أشار إلى الثّلاثة الذين بعدهم، وقال مكرّراً: «شمبانيا»، ثمّ أشار إلى السّابع، وقال: «ليس شمبانيا، ولكنّ الشّيء ذاته»، وراح يتَأتِئ «فيه فش فش فش»، وتقدّم فوكوني من القفص، وقرأ «فان موسو»، والتفت إلى الإفريقيّ وسأله: «والبقيّة؟».

واحولّت عينا الإفريقيّ جزءاً من الثّانية عندما كانت إحدى عينيه تراقبان الحاكم العسكريّ، بينما الثّانية تفشي ابتسامةً مبهمةً: «ويسكي، ويسكي». لهث وهو يفرك جانبيه: «ويسكي ممتازة».

ومرّر الحاكم لسانه على شفتيه، والتقت عيناه بعينيّ الإفريقيّ، وبما أنّ وجهه كان أحمر أصلاً فإنّه التهب الآن بظلٍّ قاتمٍ.

ولم يتلاشَ غضبه. قدّم إليه الإفريقيّ ورقةً، فنظر إليها، ثمّ رفع رأسه نحو الموظّف:

«أين برميل النّبيذ الأحمر؟».

قال الإفريقيُّ: «إنّه في المركز الاجتماعيّ».

- «عظيم». قال فوكوني.

خلال ذلك كان الحمّالون يتمايلون يمنةً ويسرةً تحت الشّمس التي كانت تصبُّ على ظهورهم رصاصاً مصهوراً، وكانت في أرجلهم قرفة جرحٍ، أو كدمة متقرّحة كانوا يجهدون لإبعاد الذّباب المكوّم عليها بتحريك أقدامهم.

- «خذ هذا كلّه إلى هناك أيضاً». قال الحاكم، ودار الحمّالون دورةً شبه كاملة.

وصاح: «إيه، أنت!».

وركض الإفريقيّ الذي كان أمام الحمّالين عائداً، وفي الوقت ذاته نادى فوكوني خادمه، ومدّ ذراعيه نحو الحمّالين.

- «خذ صندوقاً من الويسكي». قال لخادمه.

وسرعان ما أنزل آخر الحمّالين صندوقه، فقال له الخادم باللّهجة المحلّيّة: «أدخله إلى المطبخ».

وعاد فوكوني إلى برنامجه فيما كانت مشروبات الاستقبال تنزل الهضبة من المقرّ متّجهةً صَوب «المركز الاجتماعيّ الإفريقيّ».

وهذا المركز عبارة عن كوخ من الحديد المموّج كان الحاكم يؤدّي فيه أعماله، ولقد أُقِيمَ في منتصف الطّريق بين الحيّ الأوروبيّ والقرية الإفريقيّة، وأمر الحاكم بطرشه باللّون الأبيض لإخفاء اللّون الّذي كان عليه، ووُضِعَتْ فيه الكراسي من أجل البيض على المنصّة التي غُطِّيَتْ بقماشةٍ حمراء، واسْتُكْمِلَ الأثاث ببعض المقاعد من المدرسة الحكوميّة، وعُيِّنَ هناك حارسٌ لمراقبة برميل الخمر الأحمر الذي كان قد وصل قبل صناديق خمور الاستقبال، ورُفِعَ علمٌ فرنسيٌّ كبيرٌ في السّاحة، وكان الإفريقيّون المجتمعون في الطّريق يرقبون باستظرافٍ هذه التّغييرات التي تجري على الكوخ الذي سيأوي إليه زعيم البِيض، حتّى الحاكم كان قد ذهب إليه مراراً ليطمئنّ على سير الأمور.

- «المهمّ ألّا تمطر غداً». قالها وهو يلقي بنظرةٍ قلقةٍ إلى حدٍّ مّا على المركز الاجتماعيّ.

وقال الإفريقيّون لأنفسهم: «المهمّ ألّا تهبّ غداً العاصفة الأولى التي تهبّ عادةً في نهاية فصل الجفاف».

وفي المركز التّجاريّ، وعلى شرفة حانوت أنجيلو بولوي حيث يضع أيلا خيّاط دوم الشّهير، ماكينة خياطته كلّ صباح، كان ميكا يعلك جوزة كولا، وهو ينتظر سترته. لقد صار الوقت ظهراً، وبدأ ميكا يتساءل عمّا إذا كانت سترته ستنتهي قبل غروب الشّمس، وكان أيلا من جهةٍ أُخرى يريد أن يتأكّد من أنّه يصنع اليوم رائعة العمر.

«السّترات التي يلبسها البيض ليست حَسنة الصُّنع». قال، وهو يضع قدمه على الدوّاسة: «ولو أنّك نظرت إليهم، وهم يلبسونها، لَرأيت أنّهم يبدون كالمخنوقين.. سأعمل لك سترةً عظيمةً. إنّها تفصيلة زازو».

«وما هذه؟». سأل ميكا بقلقٍ.

«انظرْ إلى السّترات التي يلبسها البِيض، إنّها أشبه بسترة الرّباح التي لا تستر قفاه. إنّ أردافهم تظهر فيها، وما أريد أن أفعله هو أن أصنع لك سترةً تصل إلى ركبتيك، وهذه ما سَتُسَمَّى سترة زازو. لقد جاءني «الكتالوغ» من باريس، وأنا على إطلاع دائم بآخر صيحات الأزياء، وما يزعجني فعلاً هو أن أرى أبيض يمشي أمامي على هذه الطّريق، وردفاه ظاهران. يخطر لي أحياناً أن أذهب إليه، وأقول له: سيّدي، لم لا تتفضّل وتطوّل سترتك؟!».

وكان ميكا متحيّراً لا يفقه شيئاً.

«تعال مرّةً أُخرى». قال له أيلا: «كي نرى الطّول».

وجاء إليه ميكا، ففرد أيلا شريط القياس، ووضع ميكا قرب الجدار، ثمّ طلب إليه ملاصقة كعبيْه، وإخفاء ردفيْه، ودفع صدره إلى الأمام.

- «عظيم». قال، وهو يفرد الشّريط ليسقط حتّى يصل إلى النّقطة الموازية للرّكبة، ونظر إليه من فوق نظّارته:

- هذا هو الطّول الذي نريده.

- «ولكنّ سترات الزازو هذه». قال ميكا متحيّراً: «هل أنت واثقٌ من أنّها ليس هاوزا بوبوس؟».

ورفرفت ابتسامة تسامح على شفتيّ أيلا، وهزّ رأسه، وهو يضغط على الدّوّاسة، ونظر إلى ميكا من فوق نظّارته، وقال متلطّفاً: «يصعب عليكم -معشر الرّيفيّين- أن تفرّقوا بين الأشياء. إنّها مسألة فوق مستوى تفكيرك مثلما أنّ الكاكاو فوق مستوى تفكيري. الحِرَف والأعمال كثيرة متنوّعة تنوّع الطّيور التي خلقها الله، وما من أحدٍ يعرف حِرفته ما لم يعرف لمعرفتها وللسّيطرة عليها. إنّني أعدّ لك سترة زازو. سيسألك الجميع عمّا إذا كانت سترتك قد جاءتك من باريس، وسرعان ما ستغرقني الطّلبات، وسيكون عليّ التّفكير في تشغيل صانعٍ آخر معي...».

وقال ميكا: «وهل لديك صانع الآن؟».

- «طبعاً، عندي». هتف أيلا، وهو يرمي رأسه وراء كرسيّه: «إن كان في الخنزير شحم، فكم يجب أن يوجد من الشّحم في الفيل؟ لديّ خمسة صنّاع، وهُم الآن منشغلون ببناء كوخٍ لي».

نظر ميكا إلى الخيّاط مدهوشاً، كانت قطرات كبيرة من العَرق تتساقط على آلة الخياطة، وكان قميصه الصّوفيّ مفتوح الأزرار حتّى السُّرّة. كان رجُلاً غزير الشّعر، من دون أن يبدو أنّ شعراً سبق أن نَما على رأسه، وكان يرتدي بنطالاً ذا حمّالاتٍ مطّاطيّة مرتفعة. تبسّم بين الكلمات ابتسامةً معزّيةً وجد ميكا من الصّعب تحمّلها، وطلب إلى ميكا أن يرفع أحد ذراعيْه.

- «وبالنّسبة إلى كُمّيك». قال، وهو يهتزّ من الضّحك: «كمّاك الآن قصيران جدّاً. تبدو كأنّك تلبس معطفَ واعظٍ».

وقدّم ميكا ذراعه بطواعيّةٍ متعبةٍ.

وأطلق أيلا ضحكةً أُخرى ممطوطةً.

«سترى عندما يعلّق زعيم البيض الوسام هنا». قال، وهو يشير إلى السّترة التي يخيطها: «أنا واثقٌ من أنّه سيسألك، وهو يهمس في أذنك عن عنوان خيّاطك».

كان ذهن ميكا منشغلاً بشيءٍ آخر، بقلبٍ مغمومٍ كان ينظر إلى ما تبقّى من القماش الأبيض الذي جلبه هذا الصّباح ملفوفاً تحت إبطه، وتعجّبَ كيف استدلّ على هذا الخيّاط الّذي بدا له مدّعياً مراوغاً وفظّاً، وقال لنفسه: «بعد أن تخرج السّترة من هذه الفوضى سأستطيع أن أقول له رأيي فيه بصراحة».

راح أيلا يثرثر، ويلهث، ويشرب، ويعلك شاربه، وراحت قشور الفول الذي يمضغه تتساقط عن الملابس.

- «تعرف؟ لن أغسل هذه السّترة قبل لبسها». قال له ميكا.

وابتسم أيلا: «الفول لا يبقع. آه. لو أنّ كلّ ما يأكله الإنسان شبيه بهذا».

وأحنى رأسه مستسلماً، وحين بدأت أولى الحوانيت تغلق مغاليقها سحب أيلا السّترة من الآلة، وقطع بأسنانه الأطراف القطنيّة.

«انتهت». قال، وهو يتمطّى.

ألقى السّترة على ركبتيْ ميكا، وكان قد بدأ ينعس.

«جرّبها». قال الخيّاط: «عليّ أن أدخل الآلة الآن. أنجيلوبولوس سيغلق حانوته بعد قليل»، وأوْشك ميكا أن يخلع سترته التي يرتديها.

«أبقِها». قال الخيّاط: «يمشي الحال مع سترات الزّازو هذه...».

خطر لميكا في البدء أنّه قد تحوّل إلى نصف قوزاقي. إنّه مسيحيٌّ طيّبٌ، لكنّه سيكون أوّل مسيحيٍّ يرتدي لباساً قوزاقيّاً.

«زازو. زازو». قال الخيّاط، وهو يدور حوله.

ركع على ركبةٍ واحدةٍ، وضمّ ردفتيّ الفتحة، ورجع إلى الوراء عدّة خطوات، ثمّ طلب إلى ميكا أن يمشي إلى الأمام، واستدار إلى الأمام، ثمّ وضع يديه على كتفيه، وأمره:

- «حرّكها».

وأطاع ميكا من جديد.

- «هنا» وقضم أيلا خيطاً قطنيّاً من الكمّ: «بالنّسبة إلى الأزرار سأعطيك بَكرةً من الخيطان وإبرة. عملٌ سهلٌ. عملُ نساء»، وأضاف برعشةٍ في صوته: «زوجي مريضة».

- «ما بها؟» سأل ميكا، وهو يحسّ بالشّفقة تُجاهه.

- «مرض نساء». قال الخيّاط، وابتسامةٌ مظفّرةٌ على شفتيْه: «الألم في كلّ مكانٍ، ولكن ليس في الأربية، بماذا تنصح؟».

- «الأمر سهلٌ». قال ميكا، وهو لم يَلحظ أنّ أيلا يجمع أدواته: «كلّ ما عليك أن تفعله هو أن تطلب إليها أخذ مسهّلٍ بالصّابون. الأب هاندرمي هو الذي علّمني ذلك». قال وقد ابتلع حرفين من اسم القسّ.

- «صحيح؟». قال أيلا، وكان الآن قد وضع الغطاء على آلته: «أيّ نوعٍ من الصّابون؟».

- «لا أعرف». قال ميكا مرتبكاً.

- «المهمّ ألّا يكون صابون مارسيليّا». قال أيلا ضاحكاً.

- «نعم. هذا هو». قال ميكا فرحاً: «هذا هو».

- «شكراً». قال الخيّاط، وهو يخرج إلى الشّارع: «تستطيع أن تأخذ سترتك الزّازو».

مدّ يده مودّعاً، وأخذ ميكا سترته الجديدة، فطواها أربع طيّات، ثمّ بحث في جيبٍ من جيوب سترته التي يلبسها، وأخرج خمسمئة فرنك قدّمها لأيلا.

- «آمل أنّ هذا كلّ شيء». قال ميكا بصوتٍ غير واضحٍ.

- «سعر للأصدقاء». قال الخيّاط، وهو يضع المبلغ في جيب سرواله ذي المربّعات: «أمّا عن الأزرار...»

- «أعرف. أعرف». قال ميكا.

وابتعد أيلا، وهو يضحك.

- «أحمق مسكين آخر يظنّ نفسه ذكيّاً». قال ميكا، وهو يحني رأسه.

ثمّ أسرع في سيره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

كان انجامبا يمشي على إيقاع المشية المقيّدة للفحل المربوط إلى الحبل، ولم يسبق له أن سار بهذه السّرعة، ولذا فقد كان يتعرّق على الرّغم من برودة الجوّ، وعندما حاول الحيوان أن ينطلق جامحاً لفّ انجامبا الحبل حول معصمه، وتوقّف بحدّة، ثمّ بدأ يمشي إلى الوراء.

وحاول الفحل أن ينطلق في عدّة اتّجاهات، ولم تكن ساقَا انجامبا العجوزان قادرتين على مقاومة ذلك كلّه، ولذا فإنّه كان بين حينٍ وآخر يجد نفسه مُلقىً على وجهه إلى جانب الطّريق، فألقى برمحه كي يستطيع الإمساك بالحبل بقوّةٍ، وبيديه الاثنتين معاً، وكاد الفحل يختنق، توقّف تنفّسه، ولم يعد يتحرّك. قام انجامبا عن عنق الحيوان، ولكز خاصرته بخشبة الرّمح، فتحرّك وصار يمشي.

ظلّا يسيران هكذا إلى أن هبط الّليل على الغابة. كانت أماليا ماتزال تسير في المقدّمة، وانجامبا يحاول أن يظلّ مبصراً سلّتها. كانت تمشي كأنّما لها أجنحة، وكانت سلّتها متجمّعةً في الزّاوية المتشكّلة بين ظهرها ومؤخّرتها المستديرة، وراحت تتقدّم من دون كللٍ، ويداها وراء رأسها، وهي منحنيةٌ مثل حمارٍ مطواعٍ.

صرخ انجامبا، وهو يلهث: «لا تسرعي كثيراً. لا تسرعي كثيراً. تعرفين أنّ رِجْليَّ تؤلماني». توقّفت أماليا قليلاً، وهزّت كفّها لتوازن السّلّة، وشدّت حبل الّليف الذي جعلته مقبضاً لها، وبفعل ثقل المؤونة كان الحبل يحزّ في جبهتها المتعرّقة المتورّمة.

نظرتْ إلى الوراء، وحين صار زوجها على مدى سمعها، مرّرت قفا كفّها على وجهها، وبحركةٍ سريعةٍ مسحت العَرَق.

«حاول أن تُعجِّل قليلاً». صاحت به: «لقد بدأت أشكّ في أنْ نَصِل إلى دوم غداً».

ثمّ استأنفت مشية الحيوان المحمّل. لقد سبق أن حملت سلالاً ثقيلةً، سلال الخشب كلّما عادت من الحقول، وسلال الرّمل من أجل الكوخ، أو الطّريق، وسلال الحجارة من أجل بيت القسّ «بحيث تستطيع أن تذهب وتعترف»، وسلال الطّعام للسّفرات، هذه السّلال كلّها هي التي شكّلت تلك الزّاوية المفرغة في ظهرها مثل ثلمٍ في شجرةٍ ضُربت ضرباتٍ مميتةً بفأسٍ، ولقد أصبح الجِلْد حول تلك المنطقة سميكاً مثل جِلْد الفيل.

«أهذا لحمي ودمي؟». كانت أمّها تقول، وهي تنشج عندما كانت أماليا، وهي ماتزال سويّةً كطينٍ على جدار، قد بدأت تمرّ مقطّبةً، وهي تحمل سلّة الزّوّادة التي عملوها من أجلها خاصّة.

«من سيرغب بالزّواج بفتاةٍ هشّةٍ كهذه؟». وتتابع: «من سيطلب الزّواج بفتاةٍ لا تستطيع أن تحمل سلّة؟».

كانت أماليا تحبّ أمّها، وحين كانت أمّها تبكي كانت أماليا تبكي معها، ثمّ تسألها عن سبب بكائها، فتقول لها أمّها: «القرية كلّها تسخر منّا. الجميع يقولون إنّك لست امرأة.. لا تستطيعين حتّى أن تحملي سلّة... ما الذي سوف يأكله زوجك؟».

فتمسك أماليا بسلّة أمّها الثّقيلة، كأنّما لدغها عنكبوتٌ سامٌّ، وتحمّلها، وتجري بها إلى الحقول،

تعبّئها بزوّادة تكفي ليومين، ثمّ تقعي لتثبّت الأناشيط الثّلاث حول رأسها وكتفيها، ثمّ تضمّ ساقيها تحت بطنها، وتكزّ على أسنانها، وتتلوّى قليلاً، ثمّ تنهض على قدميها. كانت تسلك الطّريق إلى بيتها الواقع في أقصى القرية، وهي تغنّي بأعلى صوتها، وكانوا يخرجون من الأكواخ لرؤيتها، ويقولون: «هذه فتاة سوف تعرف كيف تُطعم زوجها. يا له من رجُلٍ محظوظٍ. لن يموت من الجوع. آتيما أمُّ أماليا لها بنت بين البنات»، وحين كانت تسمع ذلك كانت أماليا تنسى الحبال التي تحزّ في لحمها وظهرها الذي يحنيه الألم، ثمّ تتهاوى في شبه إغماءٍ عند قدميّ أمّها التي كانت تسرع بإغلاق الباب كي لا يرى أحد هذه النّهاية المحزنة للمأثرة.

وفيما بعد، حين تحسّنت أماليا تلقّت عشرة عروضٍ للزّواج، وبين المتقدّمين كان انجامبا الثّريّ من زورين، وقد فضّلت أماليا هذا الرّجُل بزوجاته الكثيرات على العازبين الشّبّان، وكانت تقول لنفسها: «معه على الأقلّ سيتمّ تقاسم عمل الزّوجة».

وهكذا تزوّجت أماليا انجامبا.

كانا قد خرجا من الغابة، وكان الظّلام قد حلّ. هتف انجامبا بزوجِه: «سنصل إلى نكانغو قبل وجبة العشاء، وهناك سنرتاح قليلاً، أليس كذلك؟».

كانت نكانغو أوّل قريةٍ تمرّ بها في الطّريق بين زورين ودوم، وهي عبارة عن عشرة أكواخ متداعيةٍ مبنيّةٍ حول ظليلةٍ مسقوفةٍ بالقشّ، ومفتوحة الجوانب، هي كوخ المشاورات.([16])

حين وصلت أماليا وزوجها استطاعا تبيّن أشكالٍ متجمّعةٍ حول نارٍ كبيرةٍ. رفع أحدها نظرةً فوق اللّهب في اتّجاه السّاحة، ثمّ هتف: «أيّها المسافرون! تعالوا وشاركونا وجبتنا المتواضعة. لن تستطيعوا السّفر ليلاً؛ فلِلّيل ألغازه العديدة».

دخلت أماليا كوخ المشاورات قبل زوجها، وقالت وهي تدخل: «مساء الخير. أنا أماليا أتوا زوجة...».

«إنّها زوجة انجامبا». قال رجُلٌ استطاع التّعرّف إليها.

- «هذا أنتَ يا بيناما!». قالت، وهي تمدّ له يدها.

- «نعم. أنا». قال الرّجُل، وهو يعيد ربط المِئْزَر الصّغير الذي لفَّه حول خصره: «أين زوجك؟».

- «ها أنا ذا». قال انجامبا الذي كان يربط فحله إلى عمودٍ في السّاحة.

أنزلت أماليا سلّتها، ودخل زوجها.

- «أحيّيكم تحيّة صديق».

- «نحيّيك من أعماق قلوبنا». ردّت عليه أصواتٌ من العتمة، حيث وُجدت أشكالٌ لم يستطع ضوءُ النّار أن يصل إليها، وتقدّم إليه بيناما، وشدّ على يده مُرحّباً.

- «أعطِ مكانك لرجُلٍ أكبر منك». قال بيناما لولدٍ يلحس قِدْراً، وكان الطّفل عارياً تماماً إلّا من صليبٍ في عنقه.

قال الرّجُل ذو المِئْزر: «هذا ديغول، ابني الثّاني. تتذكّر أنّني تزوّجت أمّه بعد الحرب.. آه».

قال انجامبا: «الأولاد هذه الأيّام يكبرون مثل الذّرة.. تعال سلّم عليّ يا ديغول».

وتراجع الطّفل الذي خاف من الغريب في العتمة، ومعه قِدْره، وحين مدّ انجامبا يده انسحب الطّفل أكثر مبتعداً في العتمة.

وصاح أبوه: «ديغول! تعال وسلّم عليه. هل عندي ولدٌ مخبول؟».

عند ذلك تقدّم ديغول نحو انجامبا، وهو يضع إصبعه على أنفه. كان من الصّعب معرفة لونه الحقيقيّ، فكلّ غبار السّاحة الأصفر مع مزيجٍ من رماد المَوقد، وخمرة البلح الّتي تقاطرت على بطنه المنتفخة، هذا كلّه شكّل ستارةً ملوّنةً خطّطتها ممرّات قطرات الماء المنسكبة عليه.

وفتح انجامبا ذراعيْه وساقيْه، واندفع الطّفل بينهما.

«إنّه طفل قويّ». قال الأب، وأمسك انجامبا بالطّفل وأبعده عنه كي يراه.

- «نعم إنّه كذلك فعلاً». قال، وهو يحدّق في الطّفل بذلك التّوق الحنون الّذي يكنّه أولئك الّذين يتشوّقون أن يكون لهم أولاد.

- «والآن، اذهب وسلّم على خالتك». قال انجامبا للولد.

- «تعال يا بابا الصّغير». قالت له أماليا، فتقدّم الطّفل نحوها.

لقد وُلِدَ ابن بيناما في الوقت الذي كان اسم الجنرال الشّهير شائعاً، وكان ذلك بُعيْد الحرب العالميّة الثّانية. كلّ شيءٍ في ذلك الحين كان اسمه ديغول، تماماً مثلما أنّ كلّ شيءٍ الآن اسمه زازو، وكانت صور الجنرال تملأ الأكواخ. لقد سُمِّيَتْ بناتٌ باسم ديغول مثلما أُطْلِقَ الاسم على صبيان، وكان الولد الذي يتسلّق ساقي أماليا في الخامسة من عمره.

- «اااااغاااااثااااا». صاح بيناما بنداءٍ شبيهٍ بصوت المؤذّن من كوخ المشورات ينادي زوجَه.

- «نعاااام. ما الأمر؟» .أجابته.

- «انجامبا وزوجُه هنا. هاتي لهما شيئاً يأكلانه، وتعالي سلّمي عليهما».

ثمّ قال لانجامبا بصوتٍ منخفضٍ: «لقد وصلتما بعد انتهاء العشاء».

في هذه الأثناء كان انجامبا يتعارف إلى قرابة خمسة أشكالٍ هزيلةٍ تقدّمت إليه، وكلّ منها يغطّي بيَدٍ ذلك الجزء من الأربيّة الّذي لم يستترْ بقطعةٍ قذرةٍ من القماش، ويمدّ اليد الأُخرى لتحيّته، وصافحهم واحداً بعد الآخر.

- «والآن، ما قصّة هذا الوسام؟». قال بيناما: «بعد غد، أليْسَ كذلك؟».

«هذا ما سمعته». قال انجامبا: «بعد غد»، وطقطق أصابعه، وقال بيناما: «ميكا واحدٌ من أولئك اللذين وُلِدُوا تحت نجمٍ محظوظٍ، وسيجدون السّعادة في هذه الدّنيا، وفي الآخرة».

- صحيح.

قال انجامبا: «تستطيع القول إنّه الجَمل الذي سيمرّ من ثقب الإبرة». وتابع بيناما: «لقد عرفته في الوقت الذي كنت فيه على وشك الموت جوعاً في الإرساليّة. يا له من رجُلٍ ظريفٍ! لقد كان

دائماً يدعوني إلى بيته؛ لأنّ زوجَه، أظنّ أنّها أختك»، وهزّ انجامبا رأسه بالموافقة: «قد وُلدت قرب قريتنا...».

- «هذا هو بالتّأكيد». قالت أماليا: «ذو القلب الكبير».

- «كبيرٌ فعلاً». قال انجامبا.

- «كبير». كرّر بيناما.

وفي هذه اللّحظة دخلت أغاثا، وعلى رأسها صينيّةٌ يتصاعد منها البخار. كلّ ما قد تبقّى من ثوبها الذي كان ذات يومٍ مخطّطاً، شريطةٌ تحيط بعنقها، ومرتبطةٌ بتنّورتها بسحّابٍ صَدِئٍ، وكان ثدياها الصّلبان يعبران الثّوب القديم البالي، ويتدلّيان إلى الخصر؛ أمّا ما تبقّى فقد هرّأته السّلال، وقبل أن تسلّم أنزلت الصّينيّة، ووضعتها بين ساقيها، وتمطّت، ثمّ مسحت أنفها بقفا كفها، ثمّ مدّت رسغها، وأمسك انجاما برسغيها برفق، وعيناه على ثدييها.

- «لا ضرورة لتعريفك». قال زوجها.

- «أعرفه». قالت أغاثا، وهي تبعد بناظريـها.

- «لم تسلّمي على أماليا، عند الباب». قال بيناما وهو يضحك.

- «أنا هنا مع زوجي». قال صوتٌ من الظلّمة.

والتفتت أغاثا، وذهبت نحو أماليا، وتعانقت المرأتان.

- «هل ستقضين اللّيل هنا؟» قالت أغاثا، وهي تجلس إلى جانبها.

- «ليس لدينا وقت الآن». قالت أماليا: «ربّما عند عودتنا».

- «هذا ما كان في ذهني». قال انجامبا، وفمه ممتلئٌ بالطّعام.

ثمّ توقّف الحديث إلى أن أنهى طعامه، وعندما تجشّأ بطريقته المعهودة، وجلبت له أماليا كوب ماءٍ، نظر يبحث عن نثرة خيزران على الأرض كي ينكش المنيهوت من بين أسنانه.

- «هناك ما يمكن أن تأكله أماليا في الكوخ». قالت أغاثا.

رفعت الصّينيّة، وأمسكت ديغول بيده، وتبعتها أماليا إلى كوخها.

- «لقد تزوّجت بطناً ممتازاً من أجل الأولاد». قال انجامبا.

وابتسم بيناما: «لو شاء الله لكان عندي الآن ستّة. لقد أجهضت أغاثا مرّتين، وفي كلّ مرّةٍ توأميْن»، «وتوأمين لطيفين». قال أحدهم.

- «أعرف أنّك سترزق بغيرهم». قال انجامبا بمودّة، وأضاف: «أغاثا امرأةٌ يمكن أن تحمل بالأطفال بقدر ما كانت أمّهاتنا تحمل. يكفي أن تنظر إلى بطنها». كان الجميع ينصتون باحترام إلى انجامبا، وعندما لم يعد لديه ما يقوله، سأله بيناما عن الوسام الذي سيناله صهره من زعيم البِيض، فهزّ انجامبا كتفيْه، ثمّ قال:

- «لا أعرف شيئاً عنه. قال لي أحدهم إنّه سمعهم يقولون في دوم إنّ الوسام هو وسام الصّداقة،

والمحبّة، والاحترام، وهذا ما يريد البيض أن يعبّروا عنه لميكا.. شيءٌ من هذا القبيل».

قال بيناما: «وما كان لميكا أن يناله بادّعاءاتٍ كاذبةٍ؛ فلا أظنّ أنّني قابلت في أيّامنا هذه شخصاً له طيبة قلبه، ولا بدّ من أنّ البيض قد رأوا ما رأيته».

وبعد هذه الكلمات ساد صمت.

ثمّ قال انجامبا، وهو يتناول رمحه: «عليّ أن أفكّر بالمغادرة، ولو لم يكن هناك مكان عليّ الوصول إليه لأدفأت ظهري طوال اللّيل معكم عند هذه النّار الجميلة...».

- «كنت أودّ لو جعلتك تتذوّق خمرة بلحٍ من الطّراز الممتاز». قال بيناما، وهو يغمزه.

- «لا تتكلّم عنها». قال انجامبا مازحاً، وهو يمزج صوته بتنهيدةٍ حقيقيةٍ، وبدأ الجميع يضحكون، ووقف انجامبا وهزّ أسفل ثوبه:

- «آاااغاااا ثاااا».

- «نعاااااام».

قولي لأماليا إنّ زوجها ينتظرها للذّهاب.

وبعد لحظاتٍ جاءت أماليا تتبعها أغاثا ومعها ديغول على ظهرها. نزل ديغول، ورفعت أمّه سلّة أماليا، وأنزلتها على ظهرها.

- «سنسير معكما حتّى النّهر». قالت ضاحكةً.

وذهب زوجها ليفكّ رباط إيبوغو؛ أمّا انجامبا وقد رأى يديه فارغتيْن فقد علّقهما فوق الرّمح الذي مدّه أفقيّاً على كتفيه، وسار بيناما في المقدّمة، وبيده مشعلٌ أخذه من النّار، وبالأخرى راح يجرّ إيبوغو.

قال: «ليست دوم بعيدةً من هنا. لا شكّ أنّكما ستصلان إليها صباح الغد».

- «هذا ما نأمله». قال انجامبا: «هذا إذا لم يؤخّرني الرّوماتيزم في الطّريق إلى مساء الغد».

سارت المجموعة الصّغيرة في الطّريق النّازل ضمن تشكيلةٍ هنديّةٍ: بيناما في المقدّمة، يتبعه إيبوغو، ثمّ انجامبا، وبعد ذلك الزّوجتان، وراح بيناما يلوّح بالخشبة المشتعلة ليجدّد اشتعالها في الهواء.

ومن السّاحة جاء بكاء ديغول الذي تُرِك وحده.

- «لا يعرف الطّفل أنّه قد فُطِمَ». قال والده متذمّراً: «يبكي هذا البكاء وهو في الخامسة! يخطر لي أحياناً أن أتساءل عمّا إذا لم أكن والد طفلٍ معتوهٍ».

- «لا تتكلّم بهذه الطريقة». قالت أغاثا: «من أين لك الحقّ في أن تعُدّ أيّاً كان معتوهاً. آه؟»، ثمّ صاحت: «ديغول، أنا قادمة، أنا قاااادمة».

فتوقّف الطّفل عن البكاء.

- «الطّفل ثمرةٌ غريبةٌ». قال انجامبا الذي عاد إلى الحديث على الرّغم من أنّه ليس لديه ما

يقوله: «التّربة لا تفرق كثيراً».

ولم يعرف بيناما كيف يتابع هذا الحديث.

- «هل تظنّ أنّنا سنرى ذات يومٍ هنا طريقاً؟». قال انجامبا متابعاً: «كيف يمكن لدربٍ كهذا أن يوصل إلى أرض البشر؟»

- «حين كنت شغّيلاً في الإرساليّة الكاثوليكيّة في دوم، حيث كان ما كسبته هو شكر القسّ، والعواطف الجميلة، وبركة الرّبّ الطيّب، وغفرانه، سمعت بوجود مشروعٍ في مكتب الحاكم لشقّ طريقٍ جديدة، وستنطلق من دوم لتمرّ بغابة القرود، ثمّ بجانب تلّ الأشباح إلى أن تصل إلى زورين».

- «ليت هذا كان صحيحاً». قال انجامبا متنهّداً.

- «يجب أن تتحدّث إلى ميكا عن الموضوع، وهو بدوره، يتحدّث إلى زعيم البيض، وهو يسلّمه الوسام». قال بيناما، وهو يلتفت إلى انجامبا، ولم يستطع في العتمة أن يرى إلّا لمعة عينيه.

وجاء الرّدّ: «احم. احم. احم».

ووصلوا إلى النّهر، وبدأ بيناما ينفخ المشعل الذي كان على وشك الانطفاء، ثمّ بدأ يلوّح به بعنفٍ في الاتّجاهات كلّها، وقال: «جميلٌ أنّ هناك مخاضة. تخيّل لو أنّك ستجتاز النّهر في هذا اللّيل على عارضةٍ خشبيّةٍ!».

وأخذ انجامبا الحبل الذي قُدِّمَ إليه، وأخذت أماليا سلّتها وعبرت النّهر، ثمّ وقفت تنتظر زوجها على الضّفّة الثّانية، وعلى الرّغم من أنّ الماء لم يصل إلى كاحليْه، وأنّ ملابسه تكاد لا تصل إلى ركبتيْه، إلاّ أنّ انجامبا رفع ملابسه.

- «هذا الماء سيؤثّر على الرّوماتيزم عندي». قال، وقدماه تمخران الماء، وبدأ الزّوجان على الضّفّتين وداعهما الذي لا ينتهي عبر النّهر، وكان انجامبا قد أخذ المشعل من بيناما.

- «رحلة طيّبة، ولا تنسَ مسألة الطّريق التي قلتها لك».

- «سأتذكّرها حتّى لو نسيت كلّ شيء. حتّى لو نسيت كلّ شيء». قال انجامبا، وراح يكرّر الجملة لنفسه.

ورنّحت أغاثا صوتها فوق الماء:

- «أماليا، اجلبي لي معك شيئاً من المدينة».

- «طبعاً، سأجلب». أجابتها.

- «لا تسرعا كثيراً». قال بيناما: «ليست هذه بالطّريق التي تُسْلَكُ ليلاً».

- «سنفعل ما في وسعنا». أجاب انجامبا.

- «رحلة طيّبة». قال الزّوج([17]) الأوّل.

- «ورحلة عودةٍ طيّبة». قال الزّوج الآخر.

- «سنلتقي مرّةً أخرى إن شاء الله». قالت أماليا.

- «سيشاء الله». قال صديقاهما: «سيشاء الله».

- قبّلي ديغول عنّي.

- سنفعل.

وابتعد الوهج الأحمر من طرف مشعل انجامبا عبر الظّلام، وحتّى تعب زوج أماليا من تقطيع الوقت بالمشعل المتلاشي ألقى به وسط الغابة، ولَحظ أنّ الظّلام في الدّرب لم يزدد، ولم يقلّ عمّا كان قبلاً. دفع ايبوغو أمامه وتركه يجرّه، وراح الحيوان يتقدّم بسهولةٍ، وخطمه إلى الأرض، وكانت أماليا تحسّ به عند كعبيها فيما كانت قدماها تدبّان على الطّريق بطريقةٍ آليّةٍ.

كان الجميع نائمين في القرى الأُخرى التي عبراها، وتابعا السّير فترةً طويلةً مستضيئين بشجيراتٍ مشتعلةٍ على جانبيّ الطّريق، ومع أوّل صيحةٍ للدّيك لم يكن قد تبقّى أمامهما إلّا قرية واحدة قبل الوصول إلى الطّريق العامّ الذي سيقودهما إلى المدينة بعد مشي نصف ساعةٍ.

- «لقد مشينا على نحوٍ ممتاز». قال انجامبا الذي كان فخوراً بوصوله إلى غابة بيتون مع الفجر: «أعرف شخصاً في آخر قريةٍ. أعتقد أنّنا التقينا قبل ثلاثة فصول جفافٍ عند ميكا. تذكرين يوم ذهبت إلى دوم لشراء فأسٍ».

وأطلقت أماليا همهمةً موافقةً.

- «نستطيع أن نتناول الفَطور عنده».

- «سنرى». قال أماليا: «أظنّ أنّنا سنصل إلى هناك بعد انتهائهم من صلاة الصّبح، ونستطيع الوصول إلى دوم قبل الظّهر، إذا أردت».

- «سنرى». قال انجامبا بدوره.

ورسم إشارة الصّليب، وبدأ بتلاوة صلاة الصّبح، وعلى الرّغم من أنّ أماليا لم تكن تراه إلاّ أنّها فعلت مثله، ولم يعودا يتحادثان.

أطلق انجامبا تنهيدةً عاليةً عندما انتهى الدّرب إلى طريق السّيّارات المؤدّي إلى دوم، وعلى الرّغم من أنّ الشّمس لم تكن قد وصلت إلى قبّة السّماء، إلاّ أنّها كانت قد ابتعدت عن خطّ الأفق، ولم يسبق لانجامبا أن شعر بِحَرٍّ كهذا. نظر إلى الأعلى، كأنّه يبحث عن ظلٍّ مرُيحٍ، ورفع الذّراع الّتي تحمل الرّمح فوق رأسه.

وكان العرق يتصبّب من أماليا، وكانت حركات مؤخّرتها الرّامية إلى تركيز وضع السّلّة قد دفعت ثوبها عالياً حتّى الفخذيْن اللّذيْن كانا يلمعان من العَرق تحت الشّمس، كأنّهما قد دُهِنَا بالزّيت، وكان العَرق يتصبّب من جبينها، وينزل على شفتها العليا، ثمّ يسيل على جانبي فمها، فراحت تنفخ مثل الغرمبس.([18]) راحا يسيران ببطءٍ، وهما يبحثان عن مواقع أقدامهما بين الحجارة الكبيرة وسط الطّريق. كان عليهما اجتياز الحيّ الأوروبيّ كلّه، ثمّ النّزول عن التّلّ إلى السّفح، حيث طرف القرية الإفريقيّة، ويجتازانها، ويعبران عدّة معابر قصيرة، ويجتازان مقبرة الإرساليّة الكاثوليكيّة قبل الوصول إلى بيت ميكا.

زعقت سيّارةٌ، واهتاج إيبوغو، فقفز قفزةً كبيرةً قذفت انجامبا في الهواء، ثمّ ألقت به وراء النّباتات([19]) التي تحدّد طرفيّ الطّريق، وكان الحيوان ممدّداً غير بعيدٍ عن انجامبا، وعيناه تدوران محقونتين. قام على قدميه بأسرع ما استطاع متناسياً جراحه ليفكّ الحبل الذي كان يخنق الفحل.

كانت أماليا تحتفظ بهدوئها حتّى إنّها لم تلتفت، لقد ظلّت على اليمين كما كانت تفعل دائماً كلّما جاءت إلى المدينة؛ أمّا الشّاحنة الممتلئة بالإفريقيّين فقد اجتازته مخلّفةً حوله غيمةً من الغبار. تحسّس انجامبا خاصِرَتيْ إيبوغو، وقام الفحل على قوائمه، وهو يثغو.

- «حاول أن تسرع». قالت أماليا.

وراح انجامبا يشتم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

حين وصل ميكا إلى كوخه متأبّطاً سترته الجديدة ،كان يتساءل كيف سيؤمّن مناماتٍ لحشد الأصدقاء والأقارب الّذين جاؤوا من أجل وسامه.

وتعالت همهمة أشواقٍ من الجمع المحتشد عندما رفع ميكا قبّعته في الكوخ المعبّأ بالدّخان، وقال:

- «مساء الخير للجميع».

- «انجامبا وأماليا هنا». قالت له كيلارا.

عانقهما، وضرب ظهر انجامبا ضربةً رفعته عن الأرض، وجعلته يترنّح.

- «فقدت قوّتك». قال ميكا: «لقد أتلفْنك زوجاتك».

وأضاف وهو يلتفت إلى أماليا:

- «يا لأماليا المسكينة».

- «أنا ما زلت معافى». قال انجامبا، وهو يضحك ضحكةً صاخبةً، ويمسك بميكا: «وأكثر من ذلك، أنوي أن أملأ القرية بزوجاتي كما كنت من قبل».

وأعاد ميكا إلى الأرض، ثمّ انفجرا ضاحكين.

وأعلنت كيلارا:

- «وإيسومبا وزوجه هنا أيضاً».

- «أين حفيد الأقزام؟». قال ميكا ضاحكاً: «انفخوا ليقوى اللّهب؛ كي أستطيع أن أراه».

- «أنا لا أختبئ أبداً». قال صوتٌ أجشّ: «وإذا اختبأت فمن الذي ستراه؟»

واحتضن كلٌّ منهما الآخر.

- «أين زوجتي؟». قال ميكا ممازحاً.

وجاءت زوجُ إيسومبا، وألقت نفسها بين ذراعيْه.

- «كنت أتساءل دائماً كيف أنّ غوريلّا مثلك يتزوّج زوجةً جميلةً كهذه».

- «هذا لا يعني له شيئاً». قالت المرأة الفتيّة الضّعيفة من دون أيّ إحساسٍ بالتّواضع: «إنّه لا يعرف قَدْري...».

- «هنا يُوجد رجُلٌ». قال إيسومبا، وهو يضرب صدره بقبضته.

وبدأ الجميع يضحكون. كان ايسومبا ابن أخت خال جدّ ميكا، ولم يكن عنده شيءٌ من ذكاء ميكا، ولا بنيته النّحيلة المتميّزة التي كانت من صفات عائلة ميكا الكبيرة. كان رجُلاً قصيراً بديناً بعينين حولاوين تحت حاجبين كثيفين أشعثين. كان يُلَقَّبُ بقزم العائلة، ولعلّه كان يحسّ

بالفخر من هذا اللّقب، وكانت زوجُه غير الجميلة رشيقةً وفتيّةً. كانت ترضي رجُلاً.

عائلة إيسومبا، مثل عائلة انجامبا، جاءت عندما سمعت أنّ ميكا سوف يُمنَحُ وساماً، وصافح ميكا السّلسلة غير المتناهية من الأيدي التي امتدّت إليه في الظّلام. أبناء عمومته كلّهم -ذكوراً وإناثاً- جاؤوا، بعضهم لم يره ميكا منذ سنوات، وقد جاؤوا الآن مع أطفالهم، وكلّ من يمتّ لكيلارا بصِلةٍ بعيدةٍ، أو قريبةٍ جاء أيضاً، فمثلاً: هناك امرأة عجوز نسيت كيلارا اسمها، وحتّى حينما ذكّرتها العجوز بنفسها لم تستطع أن تتذكّرها. قالت العجوز: إنّها اعتنت ذات يومٍ بأمّ كيلارا في مرضها، وكانت أمّها قد ماتت قبل الحرب العالميّة الأولى بمدّةٍ طويلةٍ.

كما وُجِدَتْ المجموعة المألوفة: نوابغمه الذي لا يهدأ، ونتي بقدميه المتورّمتين، ومغوندو بتجاعيده، وإيفينا المسكينة التي كانت قذارتها تسبّب المرض، كما أنّ أبناء عمومة ميكا، وزوجَه، وأصهارها الذين كانوا في القرية قبل أن تبدأ هذه القصّة، أجّلوا رحيلهم مرّةً أُخرى، كما جاء أهل القرية كلّهم لتكريم ابن قريتهم، ولمواجهة هذا الغزو قطفت كيلارا أوراق الموز، وكنست أجزاءً من الشّرفة، وأمام البيت، وخلفه؛ أيْ: تحت أفريز الرّافية، وكانت تنتظر انتهاء وجبة العشاء لتمدّ أوراق الموز كفرشٍ للنّوم.

وكانت تقول لنفسها: «المهمّ ألّا تمطر».

- «أشعِلي المصباح». يأمرها ميكا، وهو يجلس في مكانه المعهود على أوّل أسِرّة الخيزران، حيث كان ينام مع زوجِه.

وتأتي كيلارا، وتنحني أمام الموقد ذي الحجارة الأربعة قُرب سرير الخيزران المزدوج، وتشعل عوداً تدفعه في فتحةٍ من الزّجاج المكسور في مصباحٍ قديمٍ مضادٍّ للرّيح، ويتوهّج الفتيل، فترفعه كيلارا، وترتمي حلقة من الضّوء تضيء نصف المجتمعين، ويرتمي ظلّ ميكا، وهو يستند بساعديه إلى ركبتيه، على رافية السّقف المسودّة بالدّخان، فيبدو مثل قردٍ يجلس على مؤخّرته.

- «هل كانت سفرتك مريحة؟». وُجِّهَ السّؤال إلى انجامبا الذي كان يتمدّد على السّرير المقابل.

- «سفرة مريحة؟» قال انجامبا، وهو يتقلّب، ويسند ذقنه إلى المسند الخيزرانيّ الصّلب الذي كان يستعمله كوسادة: «ليس فقط أنّ قدميّ آلمتاني، بل كان هناك ذلك التّيس التّعِس الذي كنت أجرّه طوال الطّريق من أجلكم...».

وابتسم ميكا.

- «شكراً لك». قال له: «ولكنّني أتساءل عمّا إذا كان عليّ أن أشكرك فعلاً، فليس على المرء أن يشكر نفسه...».

- «متى غادرتَ زوريان؟» سألته كيلارا.

- «مساء البارحة». قالت أماليا: «مشينا طوال اللّيل».

- «وما هي الأخبار التي صادفتموها؟». سأل ميكا.

- «وما الذي يمكن أن يحدث في الغابة؟». قال انجامبا: «الأخبار تحدث هنا.. طيّب.. ماذا يجري؟».

- «هنا أيضاً». قال ميكا، وصفق كفّيه آمراً بالصّمت: «هنا أيضاً، عادةً لا يحدث شيءٌ ما يهمّ، باستثناء مسألة الوسام وزيارة زعيم البيض التي لا بدّ من أنّكم سمعتم بها».

- «أخبِرْني عنها». قال انجامبا، وهو يرفع نفسه مستنداً إلى كوعه: «لم أسمع عنها إلّا من أفواهٍ لا يُوثق بها كثيراً».

وحكى ميكا مرّةً أُخرى القصّة التي سبق أن حكاها لكلّ إنسانٍ منذ أن اسْتُدْعِيَ إلى مكتب الحاكم العسكري، وبِوَرَعٍ أصغى إليه الجميع مرّةً أُخرى، وانبعثت بعض «النّغمات» من بين المجتمعين.

- «لن تبدؤوا من جديد». صاح ميكا، وهو يدقّ قدمه: «خبّئوا أنفاسكم إلى الغد»، واهتزّت الرّؤوس بالموافقة.

- «هل هو هنا الآن؟ أقصد زعيم البيض». سأله انجامبا: «إنّني أسأل لأنّني عندما دخلت المدينة رأيت الأعلام في كلّ مكان».

- «يبدو أنّه يأتي دائماً في الّلحظة الأخيرة أينما كان متوّقعاً وصوله». قال إنسومبا: «هذا ما قاله أحد أصدقائي الذين يعملون على الشّاطئ».

- «ربّما كان هذا صحيحاً». قال ميكا.

- «وما الأخبار في زوريان؟». سألت كيلارا مرّةً أُخرى: «هل تزوّج مبوغسي؟».

- «آه منه». قالت أماليا مبتسمةً: «هل تعتقدين أنّه سيتزوّج بعد الآن؟ حتّى انابا العجوز لن ترضى به...».

- «آمل أنّها ستطلب أن تصبح راهبةً». قال انجامبا.

- «في عمرها هذا كلّ ما تصلح له. يبدو أنّها تنتظر رجُلاً من المدينة». قالت أماليا بمكر.

وبدأ الجميع يضحكون، وكانت كيلارا تضع قِدْراً كبيرةً على النّار، ثمّ عادت للجلوس قرب زوجها.

- «يجب أن يطبخ هذا الموز. إنّني جائعٌ جدّاً».

رفعت كيلارا الغطاء، ثمّ ردّت رأسها إلى الوراء بسبب البخار الذي تصاعد من القِدْر، وأخذت ورقة موزٍ، ورفعت القِدْر عن الموقد، حملت القدر إلى وسط الكوخ فاتحةً لنفسها طريقاً بينهم، وبحثت زوجة إيسومبا عن هاونٍ خشبيٍّ ومدقّة، وبعد أن أراحت نفسها على الأرض بدأت بدقّ الموز.

- «لم يكن لدينا ما نجلبه لكم إلّا قرد النّخيل هذا الذي طبخته زوجي». قال إيسومبا، وهو يفتح رزمةً من ورق الموز أمام ميكا.

ورفع انجامبا نفسه في سريره ليلقي نظرةً، وراح إيسومبا يلعق أصابعه، وركع، ثمّ انتزع قطعةً من الّلحم بإبهامه وإصبعه، وأخفاها في فمه.

- «لا يستطيع أحدٌ القول إنّني حاولت أن أسمّمك». قال بفمه الممتلئ.

- «انتظروا زلابية الموز». قالت كيلارا.

- «عجّلي إذاً». قال ميكا، وهو يرفع عينيه من فوق المصباح.

- «اجلبْ صرّةَ انجامبا». قال لإيسومبا.

وزحف انجامبا إلى الأمام على السّرير إلى أن صار صدره على مسند الخيزران، وغرقت يداه الطّويلتان في الصّرّة.

- «لتتذوّقْ قرد النّخيل المطبوخ بالأترجّة مع الباذنجان والفلفل، مثل هذا عليك أن تأكله وحده. لقد أكلنا مؤخّراً أفعى فاخرةً..».

- «ولمْ تفكّر بي». ردّ ميكا.

كان نوا، ومغوندو، والآخرون قد تكوّموا تلقائيّاً أمام ميكا، وعندما أحضرت كيلارا زلابية الموز كانت الصّرّة قد فرغت.

وذهبت كيلارا للبحث عن قِدْرٍ أُخرى، وكانت تلك من الخزف، ووجدتها قرب سطلٍ قديمٍ، حيث كانت دجاجةٌ تجلس على بيوضها.

- «لا أعرف إن كان هذا يكفي للجميع. النّساء سيأكلن معي، والرّجال يأكلون مع زوجي، والأطفال يأكلون مع أمّهاتهم».

وفي أقلّ من لحظةٍ كانت دائرتان قد تشكّلتا حول ميكا وكيلارا، والحقيقة أنّ الرّجال حول ميكا شكّلوا دائرتين: واحدةً حول الأُخرى؛ أمّا الّذين ساعدهم الحظّ في أن يكونوا في الصّفّ الأماميّ، فأخذوا قَدْرَ ما استطاعوا في أيديهم، حيث إنّ الآخرين عندما استطاعوا التّقدّم إلى الصّفّ الأماميّ لم يجدوا شيئاً قد تبقّى لهم.

وجلست النّساء بهدوءٍ، وعندما انتهى الرّجال كنّ مازلن يأكلن، وظللْنَ كذلك فترةً أُخرى.

ومرّت أكواب الماء من فمٍ إلى فمٍ في المجموعتين.

وكان انجامبا قد أكل، وهو مستلقٍ على بطنه، وبعد انتهاء الوجبة انزلق من جديدٍ إلى السّرير، وركّز ذقنه على المسند الخيزرانيّ، وراح نفسه يتصاعد صاخباً من بين أسنانه، وقدّمت له زوجُه نثرةً من الخيزران.

مسح ميكا يديه على قطعةٍ من الخشب، والرّجال جميعهم الذين كانوا مكوّمين أمام الرّجُلَيْن غابوا الآن في الظّلمة، أو تكوّروا في زوايا الكوخ، وحلّ ميكا حزامه، ثمّ استلقى على ظهره.

وتجوّلت كيلارا في أرجاء الكوخ، وبين حينٍ وآخر كان مغوندو يرفع المصباح الذي كان عند رأس ميكا كي تستطيع أن ترى طريقها، وبعد أن رُتِّبَ كلّ شيءٍ جاءت، وجلست قرب زوجها، واستلقت أماليا قرب زوجها، وفي الجزء غير المضاء من الكوخ كانت هناك جَلبة أشبه بجلبة قطيعٍ من الماشية المزروبة، وبين حينٍ وآخر يظهر في الضّوء رأسٌ ليختفي مرّةً أُخرى في الظّلام.

وحالما بكى أحد الأطفال دفعت أمّه بثديها في فمه لتهدئته، ولم يبق مسموعاً إلّا صوت تنفّسه المكبوت.

- «أريد أن يعرف كلّ شخصٍ المكان الذي سينام فيه». قالت كيلارا، وهي تنهض: «ليس لدينا أسِرّةٌ كثيرةٌ. انجامبا وزوجُه ينامان في السّرير الذي هُما عليه. إيسومبا وزوجُه يستطيعان النّوم في

سرير موغوندو، وموغوندو يستطيع أن يذهب مع نتي...».

- «نتي! هل تسمع؟». هتف مغوندو: «حاول ألّا تشخر كما هي عادتك».

- «أنا لا أشخر». قال نتي، وهو يصالب قدميه الضّخمتين: «لم أشخر قطّ». وتابع إنكاره.

- «أنت لست في محاكمة». قالت كيلارا: «والذين لديهم بُسطٌ للنّوم يستطيعون أن يمدّوها بعد أن أكنس الأرض، وما يزال هناك سريرٌ خشبيٌّ صغيرٌ...».

- «أنا متمدّدةٌ على هذا البساط». قالت العجوز التي ادّعت أنّها اعتنت بأمّ كيلارا.

- «كنت أعنيكِ أنتِ». قالت كيلارا: «الذين ليس لديهم بُسطٌ للنّوم يستطيعون الاستلقاء على أوراق الموز التي سيجدونها على الشّرفة. هل فهم الجميع؟»

- «اييييي..». أجاب الجميع.

واستلقت كيلارا من جديدٍ إلى جانب زوجها، ورفع مغوندو ثوبه، ثمّ جلس على مؤخّرته العارية قرب المصباح، وحذا الرّجال كلّهم حَذوه، وبدأ انجامبا يشخر.

- «أيقظيه». قال ميكا لأماليا: «كيف يستطيع أن ينام قبل أن نتحادث؟».

- «لم أنمْ. أنا لست نائماً». قال انجامبا، وقد دلّ صوته على أنّه لا يستطيع البقاء مستيقظاً إلاّ بصعوبةٍ، وتثاءب.

- «لقد بقيت في المدينة مدّةً طويلةً». قالت كيلارا لزوجها: «ولمْ تُرِنا سترتك...».

- «جرّبها الآن». قال مغوندو.

- «إنّكم مزعجون». غمغم ميكا: «لقد ظللت أجرّبها طوال اللّيل، وسترونها جيّداً عندما أرتديها غداً صباحاً. آه. صحيح يا كيلارا، عليك أن تُركّبي لي الأزرار. لقد كدت أنسى».

وفضّ السّترة التي كان قد علّقها على العلاّقة، لكنّه لم يستطع مقاومة الإغراء، فلبسها، وراح الجميع يراقبونه بصمتٍ، وهُم مشدوهون، ولم يعد هناك من صوتٍ إلّا حفيفُ القماش الجديد، وهو يفضّ، وأطلق إيسومبا ضحكةً صاخبةً.

- «لمْ يسبق لي أن كان عندي سترة، ولمْ ألبس سترةً في حياتي». قال، وهو يكاد لا يلتقط أنفاسه: «ولو أنّني ارتديت سترتك لما احتجتُ إلى سروال».

- «إنّها مثل.. لا أعرف ماذا...». قال مغوندو الذي يعوزه الخيال دائماً.

- «ماذا! ماذا!». قال ميكا، وهو يدفع كُمَّيْهِ لإخراج كفّيه منهما.

- «لم أقل شيئاً». قال مغوندو: «لم أقل شيئاً على الإطلاق».

- «عمرك لم تكن لديك الشّجاعة لتقول ما تفكّر فيه». قال ميكا: «لا أستطيع أن أتصوّر دمي يجري في عروقك». والتفت نحو كيلارا، فقالت: «لم يسبق لي أن رأيت سترةً مثلها. إنّك تسبح فيها مثل سمكةٍ صغيرةٍ في بحرٍ».

- «لا تبالغي». هتف زوجها: «انظري. إنّها تلائمني تماماً». قال، وهو يرفع الكُمّيْن، ويدير ظهره

لِزوجِه.

رفعت المصباح، وبدأت تتفحّصه، وقالت: «السّترة وأنت، مثل كلبٍ يصغي إلى الحاكي».

- «أنا أرى أنّها سترةٌ ممتازةٌ». قال انجامبا: «لا بدّ من أنّها موضةٌ جديدةٌ..».

- «على الأقلّ يُوجد واحد لديه عقل». قال ميكا بحزنٍ.

وتقدّم، ثمّ هزّ يده.

- «إنّها موضةٌ جديدةٌ فعلاً، فبعد سترات ديغول جاءت سترات الزّازو، وأنا أوّل رجُلٍ في دوم يلبس منها، ما لم يكن زعيم البيض مرتدياً واحدةً مثلها غداً».

- «إنّها عمليّةٌ». قال انجامبا: «بهذه السّترة تستطيع أن ترتدي بنطالاً تمزّقت مؤخّرته». وهمهم الجميع موافقين.

- «إنّك مجنون». انفجرت كيلارا: «كان في وسعك أن تُفصّل قفطاناً ملائماً في الوقت المناسب. كيف ستستطيع الظّهور أمام الحاكم، وأمام زعيم البيض، وأنت في هذا الشّيء؟ أنا واثقةٌ من أنّ البيض إذا رأوك في هذا الشّيء غداً فلن يمنحوك وسامهم. الخلاصة: لن أُركّب الأزرار...».

كان ميكا يعرف أنّ كيلارا حين تركب رأسها فلن يثنيها شيءٌ. طأطأ رأسه، وخلع سترة الزّازو، وألقاها بعصبيّةٍ على العلاّقة.

- «إذن، فكلّ ما وفّرته قد أُلْقِيَ في الغابة؟».

- «سأذهب معك لرؤية خيّاطك». قالت كيلارا، وهي تطوى السّترة على نحوٍ مقبول.

- «لا أعرف ما الذي وجدته في هذه السّترة». قال انجامبا مرّةً أُخرى.

- «نحن هنا لسنا في الغابة». ردّت عليه كيلارا محتدّةً.

- «اِهدأ. اِهدأ». قالت له أماليا.

وانقلب انجامبا نحو الجدار، وساد صمتٌ مؤلمٌ بعد المشادّة بين كيلارا وزوجها. كان يجلس بطريقته المعهودة، وساعداه على ركبتيْه، وهو يتساءل في نفسه عمّا سيرتديه في الصّباح، وبين حينٍ وآخر يلقي بنظرةٍ غاضبةٍ نحو كيلارا التي كانت تشغل نفسها عند العلاّقة.

- «كيلارا وزوجها متحابّان مثل اثنين من البِيضِ». قال إيسومبا، وقد بدأ يضحك: «حتّى في مثل سنّهما ما زالت لديهما مشاجرات العشّاق».

ولم يستطع ميكا أن يمتنع عن الضّحك بينه وبين نفسه، وسرى الضّحك بين الجماعة، ثمّ بدأ يعلو، وكفّ ميكا عن الضّحك. كان يحرّك شفتيه من دون أن يصدر عنهما صوت، وامتدّت شفتاه كتبويزة امرأةٍ تريد أن تتظاهر بأنّها عصيّة المنال بأكثر ممّا هي فعلاً.

وجاءت كيلارا، وجثمت أمام زوجها، ثمّ وضعت إلى جانبه رزمةً كانت قد جلبتها تحت ذراعها، وتشكّلت شبه دائرةٍ من المتفرّجين حولهما، وكشفت كيلارا عن فخذها، ووضعت قدم زوجها عليه، وبدأت تفكّ خيوط الحذاء القماشيّ الخاكي العتيق الذي يلبسه.

- «علينا أن نرى إن كنت ستستطيع غداً احتمال الحذاء الذي اشتريته من عند مدام بيبيناكيس».

لم تكن قدما ميكا قد صُنعتا لتدخلا في حذاء الإنسان الأبيض. لقد ظلّ يعيش حافياً حتّى تزوّج كيلارا، وكان هذا قبل مجيء البيض بسنواتٍ قليلةٍ، ولقد اصطدم إبهام قدمه بأشياء كثيرةٍ حتّى صار إبهامه بلا ظفر، وداء المصع([20]) الذي أُصِيب به في شبابه لوى أصابع قدمه حتّى صارت مشرعةً نحو السّماء، وهذا كلّه لم يكن كافياً، فازداد الأمر تعقيداً بأصابع صغيرةٍ تعلّقت على جانبي قدميه مثل أيدي السّلحفاة، وكلّما اشترى زوجاً من الأحذية القماشيّة كان يفتح نافذتين صغيرتين من أجل إصبعيه، وتستطيع أن تراهما بمجرّد أن يحاول لبس حذائه، ولم يلبس ميكا في حياته حذاءً جلديّاً، فلقد كان حسّاساً تجاه هذه الأحذية إلى درجة أنّه ما إن يسمع صوت نعلٍ جلديٍّ حتّى يبدأ أنفه بالتّعرّق مهما كان الطّقس.

وكانت فكرة كيلارا أيضاً، جَلْب حذاءٍ مدبوغٍ، ويتذكّر ميكا كيف ذهب في ذلك الصّباح، والحديد في روحه، لشرائه من حانوت مدام بيبيناكيس، وسرعان ما طلب نمرةً أكبر من نمرة قدمه كما أوصته كيلارا، وعلى الرّغم من إصرار المرأة البيضاء، فإنّه قد رفض أن يجرّبه. لم يكن يريد أن يظهر معاناته أمام الغرباء، ولكنّ المرأة البيضاء أقنعته بشراء زوجٍ من الجوارب، وعلبة صباغٍ، وزوجٍ من الأربطة، و«قرنٍ»([21]) لم يعرف ما يجب أن يفعله به. نظر بحذرٍ إلى هذه الأشياء كلّها التي ألقتها كيلارا قربه، وحين خلع حذاءه القماشيّ حاولت إدخال قدمه اليسرى في الحذاء الجلديّ، وأبعد ميكا يدها، ثمّ عصر أصابع قدمه بيده، وأمسك بالحذاء الذي كان في يد زوجِه، ثمّ كزّ على أسنانه، وسرحت قطرة عرقٍ بين ساقيه، ثمّ عصر الأصابع مرّةً أُخرى، ودفعها داخل الحذاء، ووقف ليضغط بثقله على كعبه الذي دخل في الحذاء، وهو يصدر صوتاً أشبه بصوت القُبلة.

نهضت كيلارا وهي تقول: «أرأيت؟ إنّها ممتازةٌ».

وجلس ميكا، ثمّ مدّ القدم التي فيها الحذاء.

- «حَاوِلْ أن تمشي». قالت كيلارا.

- «حَاوِلْ أن تمشي هنا. امشِ». وصارت الأصوات تأتيه من هذه الجهة، أو تلك، وأمسك ميكا بمسند الرّافية الذي كان تحت فخذه، وغاصت قواطعه في شفته السّفلى، ثمّ نهض وجرّب عدّة خطوات، وسرعان ما بدا كالأحنف، فعاد وجلس على السّرير.

- «لن أستطيع السّير بهذا الحذاء». قال وهو يخلعه: «لن أستطيع السّير به».

- «لا تستطيع أن تذهب حافياً، ولا تستطيع أن تلبس حذاءك القديم». قالت كيلارا.

- «نستطيع أن نجرّب توسيع هذا الحذاء». قال انجامبا: «فلنملأه بالرّمل، ولنبلّل الجلد لنجعله أكثر مرونةً، وغداً صباحاً سيستطيع صهري كما أعتقد أن يلبسه».

- «هذه حكمة رجُلٍ عَركته السّنون». قال أحدهم مؤيّداً.

- «لم أفكّر في هذا». قال ميكا، وقد استطاع العثور على ابتسامته من جديد.

- «أنا لا تخطر لي هذه المسائل، ولكن حين يقترحها شخصٌ ما أحسّ بأنّني كنت أعرفها...».

وأرسلت كيلارا المصباح مع مغوندو كي يملأ الحذاء بالرّمل، فغرق الكوخ في الظّلام، وراحت كيلارا تنفخ الجمرات الّتي كادت تنطفئ، وانبعث لهبٌ ضعيفٌ، فأضاء جانبيْ السّريريْن اللّذيْن كان ميكا وانجامبا يستلقيان عليهما.

- «يستحيل أن أستطيع السّير إلى مكتب الحاكم بهذا الحذاء». قال ميكا لنفسه: «عليّ أن أخرج من هنا بحذائي القديم، وإذا شاءت كيلارا تستطيع أن تأتي معي حتّى التّلّة، وهناك ألبس الحذاء الجلديّ».

- «صحيح. فكرةٌ ممتازةٌ». قال انجامبا.

ودخل مغوندو ومعه فردتا الحذاء، وقد امتلأتا بالرّمل، ثّم رشّهما بالماء، ودفعهما تحت سرير ميكا.

- «عندك سترتان». قالت كيلارا: «تستطيع أن ترتدي السّترة الخاكي. نعم، هذه هي التي يجب أن تلبسها».

- «هاتِ المصباح إلى هنا». قال ميكا، وهو يحوّل غضبه نحو مغوندو: «يكفي أن تنظروا إلى هذه الحزمة من التّجاعيد».

ووضع مغوندو يده على فمه كي يمنع نفسه من الضّحك.

- «خذ المصباح». قال، وهو يضعه عند رأس سرير ميكا.

- «فإلى صباح الغد إذن؟». قال انجامبا، وهو يتقلّب نحو سرير ميكا.

- «غداً صباحاً». قال ميكا.

- «متى؟».

- «يجب أن أكون هناك قبل الثّانية». همهم ميكا الذي كان قد بدأ ينعس، وبدأت كيلارا تكنس الكوخ حيث كان بعض الزّوّار سيمدّون بُسطهم على أوراق الموز، وعندما انتهت ساد هرجٌ كبيرٌ في الكوخ.

- «فيم هذا كلّه؟». صاح ميكا، وهو يقفز من السّرير: «أين تظنّون أنفسكم؟ الكبار يمدّون بُسطهم أوّلاً. إن لم يبقَ مكانٌ يجب أن يذهب الآخرون ليناموا على الشّرفة».

وخرج بعضهم، بينما أطلق آخرون تنهّدات ارتياح، وهم يتمدّدون على بُسطهم، وعاد ميكا إلى الاستلقاء. «سنسهر طويلاً ليلة الغد. إنّني متعبٌ جدّاً اليوم. ربّما أنّه عليّ أن أنهض باكراً، ولذا من الأفضل أن ننام الآن».

- «ايبيي». قال كلّ من ظلّ في الكوخ.

- «فلنصلِّ إذن». قال ميكا، وهو يركع بطريقته المألوفة، ومؤخّرته ترتفع، وركعت كيلارا قربه، وكذلك ركعت أماليا وزوجها.

- «اركعوا هناك!». صرخ ميكا بأولئك المتمدّدين على بُسُطهم.

وحين ارتفعت المؤخّرات كلّها في الجوّ مرّر يده على جبينه: «باسم الأب»، وتمدّد ميكا على

ظهره، ويده اليسرى على جبينه، وراح ينتظر النّوم من دون جدوى. لقد صار من جهة الجدار الطّينيّ، فراح يتأمّل الشّقوق. سادت الظّلمة الحالكة، وبين حينٍ وآخر كان يضرب نفسه على أذنيه ليقتل بعوضةً، وكان الجميع يفعلون مثله، وامتزج الحفيف الخشن لاحتكاك أوراق النّخيل باللّحم بالشّخير الّذي يطلقه مَن ناموا، ليمنع ذلك ميكا من النّوم فترةً طويلةً، فقد شاء له سوء حظّه ألّا ينام قبل الآخرين.

كانت كيلارا قد نامت، وهي منطويةٌ على نفسها مثل ظبيةٍ كبيرةٍ، وقد اندفعت ركبتاها في ظهر زوجها، وبدأ ميكا المدفوع نحو الجدار ينبّه زوجَه، وأطلقت كيلارا تنهيدةً، ثمّ أدارت ظهرها لزوجها من دون أن تستيقظ، وتنفّس ميكا الصّعداء، وأغمض عينيه محاولاً النّوم، وسمع أولى قمقمات الحَجل، ونظر مرّةً أُخرى عبر الشّقوق.

كانت الظّلمة قد بدأت تخفّ، حتّى إنّه استطاع أن يرى الفحل الذي جَلبه له ابن حَميه.

- «ولدٌ ممتازٌ». أخو كيلارا هذا. قال لنفسه: لقد كان الوحيد الذي خطر له أن يجلب فحلاً. الآخرون كلّهم جلبوا زوّاداتهم المسائيّة التي أرادوا أن يشاركوه بها، وما الذي ظلّ لديهم الآن ليأكلوه؟ كان واثقاً من أنّهم سينتظرون حتّى مساء الغد كي يأكلوا الفحل.

- «آه. طيّب». قال لنفسه: «عليهم أن ينتظروا طويلاً. لن يأكل الفحل إلاّ نحن الأربعة: انجامبا، وأماليا، وكيلارا، وأنا، وحتّى في هذه الحال على هؤلاء أن يتركوني آكل حتّى أملأ بطني».

وحاول أن يتصوّر كيف سيكون الاحتفال الذي سيعطونه فيه الوسام غداً، وماذا سيكون لون الوسام الذي جلبه له زعيمُ البيض؟ لقد رأى الكثير من الأوسمة على صدور البيض، ولكنْ عن بُعد، وقال لنفسه: «طالما أنّه ليس مثل ميداليّة الواعظ فلا بأس. المهمّ ألّا يبدو مثل ميداليّة أغناطيوس أوبيي. آه. سينفجر حسداً».

وابتسم. تذكّر قصّة القرد، وابتسم ثانيةً، ثمّ حاول أن يرسم في ذهنه صورة زعيم البيض كيف سيكون شكله؟ وما الذي سيقوله له؟ كيف سيسلّم ميكا عليه؟ وبما أنّه سيصبح صديقه، فهل على ميكا أن يلقي نفسه في أحضان الرّجُل الأبيض؟ هل يجب أن يأخذ له شيئاً؟ وما هو؟ فكّر بالبَيْض. يقولون إنّ البيض مغرمون بالبَيض، وأنّ البيض هو سبب مجيئهم إلى إفريقيا. كان على وشك أن يُوقظ كيلارا، ويطلب إليها تجهيز سلّة بَيْضٍ للغد، ولكنّه فكّر في الأمر مليّاً، سيكون هناك وقتٌ لذلك في الصّباح.

وتمدّد، وعلقت إحدى أصابع رجليه بين عودين من الخيزران، فأحسّ بالألم الّذي أحسّ به عندما جعلته كيلارا يجرّب الحذاء الجلديّ المدبوغ. جفّ دمه في عروقه، فجلس ليحرّر أصابعه.

- «أيّ استشهاد!». قال بصوتٍ مرتفعٍ: «حالما آخذ الوسام سوف أخلع الحذاء»، وتابع يقول لنفسه: «بمجرّد تثبيت الوسام بالدّبّوس. هذا لن يستغرق إلّا لحظةً». وغاص مع الفكرة في خاطره «...ولا حتّى هذا»، وعندها لم يعد يفكّر في شيءٍ. أحسّ بثقلٍ كبيرٍ في جفنيه، وأحسّ أنّه أخفّ ممّا كان، وهو يخرج من حانة ماما تيتي، وغطّ في النّوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الثّاني

1

وقف ميكا حاسر الرّأس من دون حراكٍ، ويداه إلى جانبيه داخل الدّائرة المرسومة بماء الكلس، حيث وُضع لينتظر وصول الزّعيم الأبيض. كان الحرس يجدون صعوبةً في إبعاد حَشْد زملائه الإفريقيّين المتجمّعين وراءه، وفي الأمام، تحت شُرفة السّيّد فوكوني، كان يُوجد البيض، ولكنّ الوحيد بينهم الذي استطاع ميكا التّعرّف إليه كان الأب فاندر ماير بقفطانه الأسود، ولحيته السّوداء. بالنّسبة إليه كان البِيض متشابهين كالبقر الوحشيّ، لهم جميعاً الوجوه ذاتها.

نظر ميكا حوله بحذرٍ، مثل حيوانٍ يحسّ أنّه مُراقبٌ، وجاهد أن يمنع رغبةً لديه في أن يمرّ بيده على وجهه ليمسح العَرَق الذي تجمّع بشكل قطرةٍ كبيرةٍ على طرف أنفه، وأدرك الوضع الغريب الذي هو فيه؛ لم يسبق لجدّه، ولا لأبيه، ولا لأيٍّ من عائلته الكبيرة أن وُضِعَ مثله داخل دائرةٍ من ماء الكلس بين عالمين: عالمه، وعالم الآخرين اللذيْن عُدّوا أشباحاً عند مجيئهم إلى هذه الأرض. لم يكن الآن مع أناسه، ولم يكن مع الآخرين، وسأل نفسه عمّا يفعله وسط ذلك الحشد الصّاخب وراءه، ثمّ يُستدعى من أجل الوسام عندما يصل الزّعيم الأكبر للبِيض. من أين جاءت هذه الفكرة الغريبة لزعيم البِيض في (دوم) بأن يضعه وسط دائرةٍ مرسومةٍ بماء الكلس؟ إنّه هنا منذ ساعةٍ، وربّما أكثر، ولكنّ زعيم البِيض الكبير لم يأتِ بعد.

كان الطّقس حارّاً، وخطر لميكا أنّ قلبه ينبض في قدميه. لقد لبس حذاءه في رأس التّلّة، وبعد أن وقع نظره على مكتب السّيّد فوكوني، ولم يكن يحسّ أنّه يلبسه عندما ذهب ليبلغ الحاكم العسكريّ بوصوله، ومشى ميكا إلى موقعه هذا تحت العَلم كأنّه ملك دوم. لمْ يُلقِ حتّى بنظرةٍ عابرةٍ على زعماء القبائل الذين استطاع تمييزهم من الأطواق الحمراء على أكتافهم.

وقال لنفسه: «إنّ أغلبهم يتفجّرون حسداً. إنّني أحتقرهم! أحتقرهم!».

ثم ضمّ كعبيه مثلما رأى الجنود يفعلون عندما يمرّ بهم رجُلٌ أبيض. مرّ به رجُلٌ أبيض، وألقى عليه ابتسامةً، ثمّ مضى، وانضمّ إلى البِيض الآخرين، وهو يُشير إلى ميكا بإصبعه، ثمّ سمع ميكا أصواتاً مشوّشةً تصدر عن الأوروبيّين، لكنّه ظلّ يقف بثباتٍ وتيقّظٍ، وأحسّ أنّه متصلّبٌ مثل لوحٍ من الخشب.

بدأ التّعب من رقبته المتصلّبة، وعاد ميكا إلى النّظر حوله، وبما أنّه بدأ يحسّ بقلبه ينبض في قدميه فقد بدأ يشكّ في أن يستطيع الاستمرار في البقاء وسط دائرته إلى أن يصل زعيم البِيض.

نظر إلى حذائه، وبدا له كما لو أنّه قد انتفخ زيادةً عما كان عليه في الصّباح عندما أفرغه من الرّمل الذي عبّأه فيه خلال اللّيل. حاول أن يحرّك إحدى قدميْه، فضمّ قبضتيه، وكتم أنفاسه.

ولعدّة ثوانٍ أحسّ براحةٍ كبيرةٍ، ثمّ حاول أن يرخي بثقله كلّه على قدمه اليمنى التي كان الألم فيها أقلّ من الأخرى، وارتاحت قدمه اليسرى، لكنّه لمْ يعد يعرف ماذا حدث لقدمه اليمنى. أحسّ كما لو أنّ الإبرة التي أعطاه إيّاها أيلا تمزّق إصبعه الصّغرى، ثمّ تمرّ إلى كاحله حتّى الفخذ لتتوقّف في عموده الفقريّ، وتكاثرت الإبرة، فصارت ملايين الإبر تحوم وتنغرز في كلّ جزءٍ من جسده، وصار ميكا يسبح بالعَرق.

- «لطيفٌ أنّني لم ألبس الجوارب». قال لنفسه، ثمّ حاول أن يستدعي إلى خياله ألماً أشدّ تعذيباً

من الألم الذي يحسّه الآن.

وقال لنفسه: «وما هذه المسألة؟ أنا رجُلٌ. رجُلٌ كما صنعني أسلافي وتركوني. إنّهم يرقبونني الآن، وأنا في هذا الوضع. يجب ألّا أجعلهم يخجلون منّي. لقد خُتِنْتُ بالسكّين، ثمّ بصق الطّبيب الفلفل على الجرح، ولم أبكِ...». وشدّ على أسنانه بقوّةٍ أكبر: «لم أبكِ. في حياتي كلّها لم أبكِ. الرّجُل، الرّجُل الحقيقيّ لا يبكي أبداً...».

وهذا ما كان عليه ميكا؛ إنّه رجُلٌ، رجُلٌ حقيقيٌّ، أو ليس هو ابن ميكا العظيم الذي صمد تلك الفترة الطّويلة أمام البِيضِ الأوائل؟ فهل يصحّ أن يبكي هو الآن أمام هؤلاء، وأمام شعبه الذي عرف أباه، أو سمع قصصاً عنه؟

وبنوعٍ من التّحوّل راح ميكا ينظر مستهيناً بالبِيض. مدّ إحدى قدميه، ثمّ وضع القدم الأُخرى جانباً، ثم دوّرها، وضمّ كعبيه معاً. التفت حوله، وابتسم للإفريقيّين، كأنّه يريد أن يُطمئنهم، ولم يعد يحسّ بحذائه. نظر إلى الْعَلَمِ الذي يخفق فوق رأسه، ثمّ نظر إلى البِيض، وإلى الجنود، ثمّ هزّ رقبته لينشّطها. قال لنفسه: «سأنتظر حتّى لو أنّه لم يأتِ إلى اللّيل. حتّى لو لم يأتِ إلى الغد. حتّى لو لم يأتِ إلاّ بعد عام، أو حتّى نهاية الدّنيا...».

وبغتةً تشنّج جبينه، وغطّت وجهه مسحةٌ من التّشاؤم. بدا أنّ هناك ثقلاً كبيراً في أسفل بطنه. من بعيدٍ، وبعيدٍ جدّاً، استطاع أن يحسّ باقتراب الدّافع لقضاء الحاجة.

كان السّيّد فوكوني في الصّفّ الأوّل بين أوروبيّي دوم، يجلس بين غوليه ومساعده، وهو شابٌّ ذو هيئةٍ جميلةٍ، كان لديه شعرٌ أسْودُ غزيرٌ، وحوضٌ عريضٌ، وكان الإفريقيّون يسمّونه «الرّجُل والمرأة الواقفان معاً». تقدّم السّيّد فوكوني، ونزل الدّرجات حتّى صار في السّاحة، ولحق به مساعده. تحدّث قليلاً على بُعد عدّة أقدامٍ من ميكا، ونظر إليه السّيّد فوكوني وابتسم، وردّ ميكا بأعرض ابتسامةٍ استطاع التّوصّل إليها، ثمّ مضى الرّجُلان الأبيضان لمناقشة زعيم الجنود، وبعدها عاد السّيّد فوكوني، ومعاونه يتبعه، إلى جماعة الرّجال البِيض.

- «وماذا يعني إذا ابتعدت؟» قال ميكا لنفسه، وقد كانت قدماه تحترقان. «وماذا يعني إذا ابتعدت؟» طرح السّؤال على نفسه عدّة مرّاتٍ، ثمّ هزّ كتفيه، ثمّ جمع شجاعته كلّها في كفّيْه، ومسح وجهه المُتعرّق. نظر حوله كأنّما يريد أن يرى إذا كان هناك من انتبه إلى ذلك.

تمايل، وقام بحركةٍ غامضةٍ. كان يريد أن يصفّر. تماسك، ثمّ مسح بكفّه على شفتيه، وتساءل عمّا يجب أن يفكّر فيه كي يستطيع نسيان الحاجة التي صارت أكثر إلحاحاً، وحرارة النّار التي تلتهم قدميه. كان على استعدادٍ لأن يضحّي بالدّنيا كلّها مقابل أن يكون الآن وراء كوخه، تحت شجرة المنغوليا التي اعتاد أن يقرفص تحتها كلّ صباحٍ بعد الصّلاة، وأغمض عينيه.

وتمتم مصلّياً: «أيّها الرّبُّ العظيم، أنت وحدك ترى كلّ ما يخطر في قلوب النّاس. أنت ترى أنّ أعزّ رغبةٍ لديَّ الآن، وأنا أنتظر الوسام والزّعيم الأبيض، وحيداً في هذه الدّائرة بين عالمين – وفتح عينيه، ثمّ نظر أمامه ووراءه، ثمّ أغمضهما ثانيةً- بين عالمين، يا الله، يا من خلقتنا مختلفين واحدنا عن الآخر، إنَّ رغبتي الكبيرة وتشوّقي العظيم أن أخلع هذا الحذاء، وأن أتبوّل، نعم. أتبوّل. أنا لست إلاّ خاطئاً مسكيناً، ولا أستحقّ منك أن تسمعني، ولكنّني أتوسّل إليك أن تعينني في حالتي هذه التي لم يسبق لي أن وُضِعْتُ فيها طوال حياتي. بحقّ سيّدنا يسوع المسيح، وباسمه أرسم شارة الصّليب في أعماقي، فليتحقّق ذلك».

فتح عينيه، ثمّ مرّ بلسانه على شفتيه، وأحسّ بالارتياح.

صارت السّاعة العاشرة والنّصف، وبدأ السّيّد فوكوني يقلق؛ لأنّ المبعوث السّامي قد تأخّر ساعةً حتّى الآن، وكانوا ينتظرونه كي يؤدّوا التّحيّة، ومضى فوكوني نحو المسؤولين الإفريقيّين، ثمّ إلى مجموعة الزّعماء، ومرّ من أمام ميكا.

وقال له: «حَرّ. أليس كذلك؟».

- «نعم. نعم». قال ميكا. كان هذا أقصى ما يستطيع أن يقوله بالفرنسيّة، وانضمّ غوليه والمعاون إلى فوكوني، وبدأ البِيض يمرّون جيئةً وذهاباً من أمام ميكا.

- «محظوظون لأنّهم لا يتألّمون من أحذيتهم». قال ميكا لنفسه بمرارةٍ: «إنّهم يرتدون قبّعاتٍ إسفنجيّةً، وهم شبابٌ، وأنا رجُلٌ عجوزٌ مسكينٌ، ولكنْ عليَّ أن أترك رأسي تُقلى تحت الشّمس مثل السّحليّة».

ومرّ الأوروبيّون من أمامه مرّةً أُخرى. كانت ملابسهم بيضاء إلى درجة أنّها أزعجت عينيه. أغمضهما، فصارت أذناه تتعذّبان من قرقعة الحصى المنسحق تحت أقدام البيض الثّقيلة.

ولمْ يعد ميكا يعرف ما الذي يؤلمه أكثر: قدماه أم بطنه، أو الحرارة، أو أسنانه. لو أنّه سُئل في هذه اللّحظة عمّا به لما كان كذب كعادته؛ إذْ يعطي الجواب بأنّ الألم في كلّ مكانٍ، وفي وقتٍ واحدٍ، وأحسّ بالأسف؛ لأنّه لم يمرّ بحانة ماما تيتي.

- «على الأقلّ هناك كان يمكنني أن آخذ شيئاً يجعلني أتوقّف عن الإحساس بالألم». قال لنفسه.

ونظر نحو المركز التّجاريّ، وفي اللّحظة ذاتها انطلق صوت البوق، وساد الهَرْجُ في كلّ مكانٍ، ورأى ميكا سيّارةً سوداءَ كبيرةً تحمل عَلماً مثلّث الألوان تقترب بفخامةٍ من السّاحة الّتي يقف فيها. ووقفت السّيّارة أمام فوكوني ومعاونه، وفتح حاكمُ دوم أحد الأبواب، وخرج رجُلان أبيضان هائلان، وتساءل ميكا عمّن بينهما يكون الزّعيم الأبيض الكبير الّذي ينتظرونه جميعاً.

ومشى الأبيضان، ووراءهما فوكوني ومعاونه جيئةً وذهاباً أمام الجنود، ثمّ قادهما فوكوني إلى شُرفة مكتبه، حيث كان أوربيّو دوم ينتظرون.

بعد قليلٍ قدّم إليهما فوكوني مجموعة المسؤولين الإفريقيّين، ثمّ مجموعة زعماء القبائل، وهنا لمْ تتمَّ المصافحة بالأيدي كثيراً، وعندما رآهم ميكا يتّجهون صوبه أحسّ بحدّ سكّينٍ يخرق أحشاءه. كزّ على أسنانه، وشدّ عضلاته كما كان يفعل عندما يواجه خطراً. أشار فوكوني إلى ميكا بطرف ذقنه، ثمّ التفت إلى الزّعماء، وهو يتحدّث، وتساءل في نفسه عمّا إذا لم يكونوا قد قدّروا حاجته الملحّة. اعتصر عينيه، وشدّ قبضتيه، وعندما أنهى فوكوني ما كان يقوله مدّ كلٌّ من الرّجُلين الأبيضين له يداً ناعمةً، شدّ عليها كأنّها خرقةٌ مهترئةٌ، ثمّ عادا إلى جماعتهما.

كان ميكا في الرّمق الأخير من قواه. الحرّ شديدٌ، حتّى إنّه نظر إلى السّماء ليتأكّد من أنّ الشّمس ما تزال فيها، ولم تنزل على ظهره.

- «لماذا لم يعطوه الوسام؟ كيف يتركون رجُلاً في مثل سنّه يقف هنا طوال ساعةٍ؟ هل ضيّعوا الوسام الذي سيناله أم نسوا أن يجلبوه؟». هذه الفكرة رَعَبتهُ. ماذا سيقول لأصدقائه، وخاصّةً

لأولئك الذين كانوا يراقبونه، وهو يتظاهر بشيءٍ من الأهميّة فيما يتعلّق بتقليده الوسام؟ آهٍ من هؤلاء البِيض، لا شيء مستقيم عندهم. يركضون عندما يسيرون، ثمّ يتحوّلون إلى سلاحف إذا وعدوك بشيءٍ. إنّهم يستمتعون بوقتهم هناك، في الطّرف الآخر من الباحة، ويطيلون عروضهم وتحيّاتهم. هزّ رأسه، ونظر إلى قدميه، واستطاع أن يمنع نفسه من القفز في الهواء.

- «لديّ قدما نتي! لديّ قدما بول نتي». قال لنفسه متألّماً، ووضع كفّيه في أسفل بطنه، فجعله هذا يحسّ بالرّاحة

وسرعان ما ضمّ كعبيه معاً عندما رأى الغربيين الأبيضيْن مع فوكوني، ومساعده، وبيبينياكيس يجيئون نحوه. مدّ ذراعيه إلى أقصى ما يستطيع إلى جانب فخذيه، ثمّ رفع رأسه عالياً، ووقف بثباتٍ كاملٍ، ورأى بيبينياكيس يقف إلى جانبه، بينما ظلّ فوكوني والآخرون على بُعد خطواتٍ أمامه.

وتصاعد صوتُ البوق، ثمّ جاء قرعُ طبولٍ، وجاء نحو بيبينياكيس واحدٌ من الأبيضيْن العملاقيْن. «إنّه هو، الزّعيم الأبيض الكبير». فكّر ميكا. لم يسبق له أن رأى شيئاً، أو شخصاً يشبهه. كلّ ما استطاع أن يراه هو طيّات الجلد المتراكمة تحت ذقنه، التي كادت تخفي عقدة ربطة عنقه.

كان الزّعيم الكبير يتحدّث إلى بيبينياكيس كأنّه يتحدّث إلى شخصٍ أصمّ، وكان بيبينياكيس واقفاً بثباتٍ كالتّمثال، وعندما انتهى الزّعيم تناول وساماً من علبةٍ صغيرةٍ كان مساعد فوكوني يمسكها له، ويمدّها إليه، ثمّ ثبّته بدبّوسٍ على صدر بيبينياكيس، ثمّ رأى ميكا الزّعيم الكبير يمسك بكتفيه، ويضع خدّيه واحداً بعد الآخر عند خدّيْ اليونانيّ، وعند كلّ حركةٍ كانت طيّات الجلد تحت ذقنه تتأرجح مثل ثديٍ ذابلٍ قاتمٍ.

ثمّ جاء دور ميكا، وقف الزّعيم الأبيض أمامه، وبدأ يصرخ، وفيما كان يفتح فمه ويغلقه كان فكّه السّفليّ ينزل ويصعد ساحباً معه، ثمّ مرخياً، الجلد تحت ذقنه، وتناول وساماً آخر من العلبة، وتقدّم نحو ميكا، وهو ما يزال يتكلّم، واستطاع ميكا أن يلْحظ أنّ الوسام ليس مثل وسام اليونانيّ.

صار الزّعيم الأبيض عند كتفيه، ونظر إليه في اللّحظة التي كان يثبّت فيها الوسام على صدره. استطاع أن يحسّ بالنّفس الحارّ يخترق سترته الخاكي، وكان الزّعيم يتعرّق مثل مصارعٍ، فبدا كأنّه مطرٌ ينزل على ظهره، وامتدّت رقعةٌ كبيرةٌ نديّةٌ من كتفيه إلى ردفيْه.

وتساءل ميكا بقلقٍ عمّا إذا كان سيدفع حوصلته على كتفٍ من كتفيه مثلما فعل مع بيبينياكيس، وتنفّس الصّعداء مرّةً أُخرى عندما ابتعد الزّعيم الأبيض، بعد أن ثبّت الوسام، عدّة خطواتٍ إلى الوراء، وهزّ له يده، وابتلع ميكا كفّ الزّعيم مثل قطعةٍ من خرقةٍ قطنيّةٍ.

واسترق ميكا النّظر إلى صدره، كان الوسام هناك فعلاً، معلّقاً على سترته الخاكي. ابتسم، ورفع رأسه، ثمّ لَحظ أنّه كان يغنّي في أعماقه، وأن وجهه كلّه يخفق، وهو يحسب الوقت، وكان جسده يتأرجح رغماً عنه، وركبتاه تنطويان وتشتدّان مثل النّابض، ولمْ يعد يحسّ بأيّ ألمٍ، حتّى إنّه لم يسمع عظامه، وهي تطقطق.

الحرارة، وحاجته، والألم في قدميه، هذا كلّه اختفى كأنمّا بفعل السّحر. نظر مرّةً أُخرى إلى الوسام، واستطاع أن يحسّ برقبته تكبر. نعم. إنّ رأسه يصعد أعلى فأعلى حتّى السّماء مثل برج

بابِل، ووصل جبينه إلى الغيوم، وارتفعت يداه الطّويلتان شيئاً فشيئاً، مثل جناحيْ طائرٍ يتهيّأ للطّيران.

- «لقد مرّ وقتٌ طويلٌ قبل أن تفقد القِدْرُ التي يُطبخ فيها الفَحلُ رائحتها». قال هذا لنفسه. من قال: إنّ آل ميكا قد انتهوا؟ أليس هنا واحدٌ منهم، هو نفسه ميكا الإفريقيّ من دوم، الذي تقلّد وساماً من زعيم البِيض؟ نعم. كان معروفاً في تمبا. عَبَر اسمهُ البِحار، وطار فوق الجبال، حتّى وصل إلى أُذن الزّعيم الأكبر للبِيض، الذي أرسل زعيماً كبيراً عظيماً آخر ليقلّده الوسام في دوم. لقد عرفه العالم كلّه، ورأى العالم كلّه كيف أنّ يد المبعوث السّامي ذاتها قد ثبّتت الوسام على صدره.

كان الزّعيم الأكبر للبِيض مع تابعه، وفوكوني وتابعه، يقفون وسط السّاحة في مواجهة ميكا، وأعلم فوكوني المُترجم أنّ لميكا موعداً في مكتبه، وركض المُترجم الإفريقيّ، وقبّعته بيده، إلى ميكا، وأخبره أنّ زعيم البِيض قد دعاه للشّراب والأكل طوال اليوم، وأنّ الشّرب سيبدأ في المركز الإفريقيّ، وهزّ ميكا رأسه ليشير بالقبول، وأبلغه المُترجم أنّ يمضي ويقف مع المسؤولين ومع بيبينياكيس، وعبر ميكا السّاحة برأسٍ مرتفعٍ، ولم يتنازل بالوقوف إلى جانب اليونانيّ، بل أخذ مكانه إلى جانب معاون فوكوني.

وصدح البوق، وبدأ الجنود يسيرون على إيقاع «مارش لوران»، وكانوا يلتفتون برؤوسهم بقوّةٍ في اتّجاه الزّعيم الأكبر للبِيض الذي كان قد رفع يده إلى قمّة الكبية.([22])

بانفعالٍ شديدٍ كان ميكا يراقب بعينيه المتورّمتين البنادق الجميلة التي تمرّ وتعود من أمامه. من يستطيع مقاومة أبناء يافث؟([23]) وتذكّر مسكيته([24]) الكفيريّة القديمة.

كيف خطر لأبيه أن يقاتل حتّى النّهاية ضدّ البِيض بسلاحٍ كهذا؟ بحث عن القنبلة الدّخانيّة التي تحدّث عنها أغناطيوس أوبيي، لكنّ أيّاً من الجنود لم يكن يحمل الكرة السّوداء الكبيرة التي تخيّلها، وبدأ ميكا بِعَدِّ البنادق. ضيّع العدد، فحاول أن يبدأ من جديدٍ، وضيّع العدد مرّةً أُخرى، ثمّ فكّر في الغوريلّات، تلك المخلوقات القذرة التي تخرّب بيّارات الموز. لو أنّه أُعطي واحدةً من هذه البنادق المهدورة هنا –واحدة فقط- لعرفت الغوريلّات من الذي تتعرّض له، وقرّر أنّه سيطلب بندقيّةً من زعيم البِيض. ماذا يكلّفه أن يقدّم إحداها هديّةً؟ ونَمَت الفكرة في ذهنه حتّى صار ينقل نظرةً من زعيم البِيض الكبير إلى فوكوني، ثمّ يعود من جديد. جاءته نظرة المعاون الذّابلة، وحرّك ميكا شفتيه، وتقدّم خطوةً إلى الأمام، وأشار إليه المعاون بحركةٍ حازمةٍ أن يرجع، وأحسّ بارتعاشٍ شديدٍ في قدميه. مرّر يده على وجهه، فهزّ المعاون كتفيه، ولمْ يعد ينتبه، وشعر ميكا بجفاف حلقه. ضمّ كعبيه، وانحنى إلى الأمام قليلاً ليراقب آخر البنادق، وهي تختفي، وعندما استقام ثانيةً تلقّى نظرةً ذابلةً أُخرى من المعاون، وعادت الحاجة المُلحّة تضغط عليه.

كانت كيلارا تراقب زوجها، وهو يتلقّى الوسام بعينين بلّلهما الفرح، وعندما صافح الرّجُل الأبيض يَد ميكا، أحسّت أنّ قلبها قد توقّف عن الخفقان.

- «هذا شخصٌ له قيمته». كانوا يقولون: «لا نستطيع أن نقول إنّه ليس لدينا رجُلٌ عظيمٌ في دوم»، ثمّ قال بعض المشاغبين: «أعتقد أنّه كان عليهم أن يغطّوه بالأوسمة. هذا كان سيعجبه أكثر، تصوّر أنّه فقد أرضه وأولاده من أجل هذا...».

كانت تلك ملحوظةً غادرةً بدّدت حماس كيلارا كلّه، عندها فقط عرفت أنّ حزنها ما يزال كبيراً، وأنّه ما من شيءٍ يمكن أن يعادل فقدانها لولديها. فكّت عقدة منديلها، ودفعته في فمها كي لا تبكي.

- «ماذا جرى للعجوز؟». سأل أحدهم: «هل هي مريضة؟».

أمسكتها امرأةٌ من كتفها، وبدأت كيلارا تنتحب من أعماق قلبها على كتف المرأة، وراحت المرأة تبكي معها بدورها، وحوّل الرّجال عيونهم عنها.

وتساءلوا مرّةً أُخرى: «ما الذي يمكن أن يكون قد حدث للعجوز؟».

أحسّت كيلارا بالغصّة التي برزت في حلقها قد بدأت تتلاشى، وهي تبكي، وعندما أحسّت أنّها قد اختفت تماماً شكرت المرأة التي ساعدتها، ثمّ وقفت على رؤوس أصابعها لترى ما في السّاحة، حيث كان الاستعراض يصل الآن إلى نهايته. رأت زوجها، ورأسه تحت الشّمس يلمع، وهو يبتسم ببلاهةٍ لزعيم البِيض. شيءٌ ما حدث في أعماقها لم تستطع أن تفهمه. بدا لها ميكا كشخصٍ لم يسبق لها أن رأته من قبل. أيمكن أن يكون ذلك الرّجُل الذي يبتسم هناك هو زوجها؟ نظرتْ إلى الخفّيْن العتيقيْن اللّذيْن لفّتهما في صحيفةٍ وتأبّطتهما، وعادت إلى الوقوف على أطراف أصابعها. الرّجُل الّذي يضحك هناك لا تربطها به أيّة علاقةٍ. خافت من نفسها، فركت عينيْها، ونظرت مرّةً أُخرى إلى ميكا، وانفرجت زاويتا فمها عن تكشيرة ازدراءٍ. شقّت طريقها بين الحشد حتّى وصلت إلى الشّاب الأخرق، فأمسكت بيده، ونظر إليها الشّابّ، وقد فتح فمه دهشةً.

- «أنت الذي تحدّث منذ قليل». قالت له: «شكراً لك. لقد تحدّث الرّوح القدس من فمك».

كان الشّابّ على وشك أن يعترض، ولكنّه غيّر رأيه، ومرّر يده على شفتيه.

- «يا الله!» قال بصوتٍ مرتفعٍ: «ما الذي قلته؟».

- «أتريد أن تعرف؟». قال جاره، وهو شابٌّ قصيرُ القامة أشبه ما يكون بالصّينيين: «أنت الذي جعل العجوز تبكي منذ قليلٍ...».

وعندما التفت الشابُّ الأخرق مذعوراً ليعتذر من كيلارا، كانت قد اختفت. قال: «لا أفهم. هل هي زوج الرّجُل الذي أعطوه الوسام منذ قليل؟».

- «ربّما كانت هي، لأنّها بدأت تبكي عندما قلت إنّه كان يجب أن يُعطى عدداً كبيراً من الأوسمة. كيف عرفت أنّه فقد أرضه وأولاده مقابل الوسام الذي أعطوه إيّاه؟».

- «كان الحاكم يقول ذلك ليلة أمس للسيّد بيبينياكيس عندما كانا يتحدّثان على العشاء. هل نسيت أنّني خادم الحاكم؟».

وصمت الشّابّان.

على الشّرفة، خارج مكتب فوكوني، كان ميكا الأسْود الوحيد، وبقعة الخاكي وسط البدلات البيضاء التي يلبسها أوربيّو دوم، وكان يجبر نفسه على الاستمرار في الابتسام ليلفت انتباههم، وبين حينٍ وآخر كانت يدٌ بيضاء تمرّ على رأسه، أو قرب أذنيه قبل إبداء إشارة إعجابٍ تقليديّةٍ بالوسام المعلّق على صدره، وقد سرّه أن يلحظ أنّه ما من أحدٍ من البِيض يعلّق وساماً مثل

وسامه، وتوجّه نحو الأب فاندر ماير بأوسع ابتسامةٍ استطاع أن يرسمها عندما ربّت القسّ على كتفه، وقال له بابتسامةٍ ترفّ على جانب فمه: إنّه الآن الشّخص الأكثر أهميّةً.

ولم يعرف ميكا كيف صار واقفاً خارج الدّائرة التي شكّلها الأوروبيّون حول زعيمهم. كان الإفريقيّون يرقصون في السّاحة، وكان ضرب الطّبول قد بدأ عند نهاية الاستعراض.

ولم يعرف ميكا من سيسأل عن موعد ذهابهم إلى المركز الإفريقيّ. توجّه إلى الأب فاندر ماير، وربّت على كتفه، وأطلق القسّ نظرةً غاضبةً نحوه، ولوّح يبعده عنه بقفا كتفه، ورفع ميكا يده إلى ذقنه، وهو خائفٌ، ثمّ فتح فمه كالسّمكة. لا. إنّه لا يصدّق ذلك. لا يمكن للأب فاندر ماير أن يردّ عليه ردّاً كهذا.

ابتعد ميكا عدّة خطواتٍ، واستند إلى الجدار. مدّ رجليه، ووضع كفّيه على ردفيه. حرّك رأسه عدّة حركاتٍ، ثمّ ثبّته، وظلّ فمه مفتوحاً بالدّهشة، مثل فم حيوانٍ مخنوقٍ. حدّق إلى الأرض في استغراقٍ بليدٍ كأنّ للإسمنت عينيْ أفعى. لم يعد يراقب مجموعة البِيض، ولم يعد يَصله إلّا همهمة حديثهم.

أين سبق له أن سمع بِيضاً يتحدّثون هكذا من دون أن يفهم ما يقولونه، ومن ودون أن يراهم؟ وضع يديه على رأسه، وراح يضغط صدغيه كأنّه يريد استخراج الذّكرى الضّائعة من فوضى ذاكرته المشوّشة. قطّب قليلاً، ثمّ انفرجت أساريره. تذكّر، كان ذلك وهو يصغي إلى الحاكي. أغمض عينيه، وطرد الأب فاندر ماير، وفوكوني، والزّعيم الأبيض الكبير من ذهنه.

وفي تلك اللّحظة، ربّت شخصٌ على كتفه، وقبْل أن يفتح عينيه شعر أنّه الأب فاندر ماير. كان يعرف طريقته في التّربيت على أكتاف المؤمنين عندما كان يمرّ بهم يوم الأحد، ويجمع الصّدقات.

- «هل أصبت بمرض النّوم؟». قال بلهجةٍ محليّةٍ غير متقنةٍ.

وبدأ يضحك، لكن الضّحكة تجمّدت على شفتيْه. كان ميكا ينظر إليه بأوّل نظرةٍ غاضبةٍ نظر بها طوال حياته.

- «هل أنت مريض؟ هل هناك ما يؤلمك؟». قال الأب فاندر ماير متلعثماً.

- «لا يا أبانا. أنا مُتعبٌ كثيراً». قال ميكا كاذباً.

- «سترتاح فيما بعد في المركز». قال القسّ، وهو يشدّ أذن ميكا.

- «نعم يا أبانا». قال ميكا.

كان الأب فاندر ماير، عندما نهَر ميكا، وقد أدرك بعد فوات الأوان بأنّه قد سمح لمخالبه بالظّهور، وسأل نفسه ما إذا كان ميكا قد لَحظ ذلك. أراد أن يلاطفه، وحين لَحظ أنّ ميكا لم يعد يقربه توجّه إليه ليحادثه، واطمأنّ سريعاً. لمْ يلحظْ شيئاً في وجه ميكا، فعاد إلى الآخرين.

وأخيراً أتى فوكوني على ذِكْر حفل الاستقبال، وانفتحت دائرة الأوروبيّين للسّماح للمبعوث السّامي بالمرور، وعندما انتبه ميكا، شدّ وقفته، ومسّد أطراف سترته. نزل المبعوث السّامي الدّرج، وابتسم له، وركب البِيض سيّاراتهم، ووجّه الأب فاندر ماير الدّعوة إلى ميكا للرّكوب في مؤخّرة شاحنته على الرّغم من أنّه ليس معه أحدٌ في المقدّمة. انطلقت سيّارة المبعوث السّامي

في المقدّمة، وتبعته سيّارة فوكوني، ثمّ سيّارة غوليه، ثمّ سيّارة الأب فاندر ماير، وجلس ميكا على صندوق خمر العشاء الرّبّاني، وخلع حذاءه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

لم يستطع انجامبا أن يفهم المسألة على الإطلاق. كانت كيلارا جالسةً وسط الغبار في السّاحة، يداها على رأسها، وهي تبكي بمرارةٍ. أماليا إلى جانبها، ومع كلّ دفقة بكاءٍ من المرأتين كانت الرّعدة تسري في جسده.

- «اهدئي». صرّخ بها: «اهدئي. لماذا تريدين أن تجلبي سوء الطّالع لهذا اليوم الجميل الذي أُعْطِيَ فيه ميكا وساماً من قِبَل زعيم البِيض؟».

وتضاعف صراخ كيلارا وبكاؤها لهذا الكلام، وبدأت تتمرّغ على الأرض مثلما يتدحرج جذع شجرٍ، ثمّ شدّت شَعرها، وحاولت أن تبصق على وجهها.

كانت القرية خاليةً من الجميع في دوم للتّفرّج على زعيم البِيض الكبير الذي كان مجيئه اليوم مصدر إثارةٍ لكلّ إنسانٍ.

ولم يذهب انجامبا؛ لأنّ قدميه لم تستطيعا احتمال الرّحلة، وحتّى للذّهاب وراء كوخه، كان يجب أن يُحْمَلَ على ظهر أماليا، وقد كان يسهو قليلاً عندما جاءت لتخبره.

- «اسمع من يبكي، ويبدو أنّه شبيهٌ بصوت كيلارا». قالت ذلك، ووضعت يديها وراء أذنيها، ولم تكن أماليا مخطئةً، فقد كانت كيلارا هي التي جاءت تنشج من الطّرف الآخر من القرية.

- «هل هناك أمّ، أو زوجة أشدّ تعاسةً منّي؟ ظننت نفسي قد تزوّجت رجُلاً، رجُلاً حقيقيّاً، ولكنّني، عوضاً عن ذلك تزوّجت كيساً ممتلئاً بالقذارة. آه، يا أولادي، يا أولادي المساكين، بِيعُوا كما بيع المسيح من قِبَل يهوذا. على الأقلّ، يهوذا فعلها من أجل المال؛ أمّا الرّجُل الذي نام معي لأحمل منه بكما فلم يحصل على سعرٍ ملائمٍ لبذرته. أنتما، يا صغيريّ، لم يكن ثمنكما إلّا وساماً. هل هناك زوجة، أو أمّ أشدّ تعاسةً منّي؟».

وراحت تكرّر ندبها.

-«اهدئي يا كيلارا، وأشْفقي عليّ». رجاها انجامبا: «أنا مريضٌ، ولم أعد أستطيع احتمال البكاء».

وتهدّج صوته، وهو يقول ذلك، بينما وضعت أماليا ذراعاً على عنق كيلارا، وذراعاً على خصرها، وسحبتها إلى الكوخ، فتمدّدت كيلارا إلى جانب النّار، وجلبت لها أماليا كوباً من الماء شَربتهُ، وهي تنشج.

وهزّ انجامبا كتفيه، وأدار ظهره لكيلارا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

فرغت زجاجة الشّمبانيا، وراح ميكا يعصرها في هذا الاتّجاه، ثمّ في ذاك الاتّجاه بيده الضّخمة. لقد جلبها له ولدٌ يحمل صينيّةً، ويطوف بها في الحُجرة، وكان قد أفرغ كأساً بجرعةٍ واحدةٍ، ومن دون أن يُلقي نظرةً إلى البِيض على المنصّة، الذين كانوا ما يزالون يحملون كؤوسهم في أيديهم.

وكذلك فعل مثلهم الإفريقيّون الآخرون، المسؤولون والزّعماء، الذين خُصّوا بامتياز المجيء إلى حفل الاستقبال في المركز، وعندما أعطى المبعوث السّامي الإشارة برفع كأسه إلى شفتيه لَحظ أنّ ميكا ترك كأسه، فالتفت إلى فوكوني الذي وجّه نظرةً حادّةً إلى ميكا، ولكنّ ميكا لم يلْحظ شيئاً.

حاول ميكا أن يحلّل طعم الخمرة التي لم يسبق له أن ذاقها في حياته،التي كانت ما تزال تجيش في معدته. بِمَ تذكّره؟ تذكّر أملاح إينو الّتي أخذها في كأس ماءٍ عندما أكل كثيراً ذات يومٍ. لا. ليست كذلك. لا يمكن للحاكم أن يلعب لعبةً كهذه: أن يعطي كلّاً منهم عصير إينو في حفل استقبالٍ.

ولكنْ ما الذي يشبهه طعم هذه الخمر؟ فعلى الرّغم من أنّها تجيش وتفور مثل إينو إلّا أنّ طعمها مختلفٌ. أعطى ميكا أذنه، وكان على وشك أن يميل على أُذن الشّخص الذي يقف إلى جانبه، ولكنّ الكتّافيّة الحمراء على سترته أوقفته، ودُهِش لأنّ الآخرين لم يفرغوا كؤوسهم من الشّمبانيا في جرعةٍ واحدةٍ كما فعل. البِيض والسّود على السّواء، مرّوا بشفاههم على حافّة الكأس. كانوا يشربون برشفاتٍ صغيرةٍ، مثل عصافير تشرب على طرف بحيرةٍ. آه. كيف يمكن لهؤلاء البِيض، والمسؤولين، والزّعماء أن يسمّوا أنفسهم رجالاً بينما قطرة من الخمر التّافهة كهذه تجعلهم يقفون أمامها بهذه الرّهبة! ونظر ميكا إلى المبعوث السّامي، كانت ابتسامة استعلاءٍ صغيرةٌ ترتسم على شفتيه. حتّى الزّعيم الكبير للبِيض يهاب هذه القطرة السّخيفة من الخمر. ميكا سوف يريه أنّه ابن رجُلٍ، أشار إلى الولد الذي كان يقف عند أسفل المنصّة، ومدّ له كأسه، وأدار الولد رأسه جانباً كي لا يضحك. لا شكّ أنّه بحكم عمله قد شاهد أناساً من الأنواع كافّةً، ولكنْ كيف لفلاّحٍ مثل هذا من دون جوارب، أو ربطة عنقٍ، أن يتصرّف بهذه الحماقة في المركز، أو في حضرة المبعوث السّامي، كأنّه في كوخه؟

رفع ميكا نفسه نصف رفعةٍ من المقعد الذي كان يجلس عليه، ومدّ كأسه الفارغة للولد، وردّ الولد بإشارةٍ، ثمّ قطّب بحركةٍ لم يفهمها ميكا، فوقف، وفي تلك اللّحظة ربّت جاره على فخذه، فجلس ميكا على نحوٍ آليٍّ، وتنحنح ليداري ارتباكه، ثمّ التفت إليه. انحنى جاره عليه، فارتعش ميكا، وهو يحسّ بالنّفس الحارّ على أذنه.

«بلُطفٍ.. على مهلك». تمتم جاره هامساً: «سنشرب هذه الزّجاجات البيضاء التي تحت الطّاولة كلّها. يدعون سكّيرين مثلنا، ثمّ انظر إلى هذه الكؤوس التي يعطوننا إيّاها. لا أظنّ أنّها ستجعلنا نسكر..».

وبدأ يضحك ضحكةً مكتومةً، وضحك ميكا بدوره.

- «دعنا ننتظر». قال الآخر: «دعنا ننتظر». وأفرغ كأسه، ثمّ مرّر لسانه على شفتيْه.

- «بالنّسبة إليّ أنا ميكا». بدأ زوج كيلارا الكلام، وهو يميل بدوره إلى رفيقه: «كنت أعرف كيف ستسير الأمور. المترجم هو الذي قال لي: إنّنا سنأتي إلى هنا كي نشرب، فلماذا أعطونا كؤوس القربان الصّغيرة هذه؟ هل سنؤدّي الصّلاة؟».

وبدأ الرّجلان يضحكان من جديد.

واخترق الولد الصّفوف، وبيده زجاجةٌ جديدةٌ إلى حيث كان ميكا يجلس، وعندما أراد أن يعبّئ له كأسه خبّأها ميكا وراء ظهره، وقال له: «إنْ لم يكن عندك شيءٌ آخر فسأذهب. إنّ بطني منتفخةٌ بما فيه الكفاية».

وتجشّأ، فهزّ الولد كتفيه، ومضى إلى الشّخص التّالي، وركّز ميكا كأسه على رأسه، فعاد إليه الولد مذعوراً.

- «لا تفعل ذلك». همس له: «ما الذي تريد أن تجعل البِيض يظنّونه؟ هل تريد أن تجعلهم يظنّون أنّني لم أسكب لك أيّ شيء؟».

- «يا بنيّ». قال ميكا: «الخمرة الموجودة وراء الباب، التي تظلّ تجلب الزّجاجات منها ليست ملكك. إنّها للبِيض. أليس كذلك؟».

- «أيبي». همس كلّ من كان إلى جانب ميكا.

- «اجلبْ لنا بعض الويسكي». قال ميكا: «هيّا. الحاكم لن يأكلك».

- «لا يحقّ لي ذلك». قال الولد، وهو يتلفّت حوله: «لا أستطيع».

واستدار، ثمّ عبر الغرفة، وهو يحمل زجاجة شمبانيا نصف فارغةٍ، وبعد لحظاتٍ عاد ومعه زجاجتان استطاع ميكا تمييزهما عن بُعد، وعندها قام الإفريقيّون الذين كانت كؤوسهم ما تزال ممتلئةً بإفراغها تحت مقاعدهم.

وفتح الولد زجاجةً، وملأ الكأس التي كان ميكا يمدّها إليه، وابتسامةٌ عريضةٌ على وجهه، وعندما امتلأت الكأس ردّ ميكا رأسه إلى الوراء، وبحركةٍ مفاجئةٍ أفرغ محتويات الكأس في حلقة، ثمّ مدّ الكأس الفارغة إلى الولد ليملأها فوراً.

- «الآن تستطيع أن تخدم الآخرين». قال ميكا، وهو يغمزه.

ونظر إلى جاره الذي كان يمدّ كأسه، ثمّ لكزه بكوعه، ورفع الرّجُل الآخر حاجبيه، ثمّ زمّ شفتيه، وبدأ يتذوّق محتويات كأسه.

- «أشعر الآن أنّني أفضل». قال ميكا، وهو يتجشّأ.

- «وأنا أيضاً». قال جاره.

- «بدأت أفكّر بأنّنا ربّما كنّا نشرب خمرة الرّجُل الأبيض».

- «بدأتُ أُخمّن أنّها سوف تشرب».

وبدآ يضحكان.

كان فوكوني قد أعطى تعليماته للأولاد الذين يقومون بالخدمة فيما يتعلّق بالضّيوف الإفريقيّين بأن يبدؤوا بالشّمبانيا، وأن يتصرّفوا على مهلٍ، ثمّ كرّر عدّة مرّاتٍ بألّا يقدّموا الويسكي إلى أن تنتهي الخمرة الفوّارة، والخمر الأحمر كلّه؛ أمّا وقد قدّم الأولاد الويسكي للإفريقيّين الآن، فقد احمرّ وجهه كما لو أنّ شيئاً ما قد احترق داخل رأسه، وقد بذل قصارى جهده كي يستطيع الاستماع إلى ما يقوله له المبعوث السّامي، ولكن بين حينٍ وآخر كانت عينه تتّبع الأولاد الّذين صاروا خائفين الآن من الاقتراب لتقديم الخدمة على المائدة العالية، ولم يتناول الأوروبيّون شيئاً باستثناء الكأس الأولى، وأُفرغت الزّجاجات في كؤوس الإفريقيّين الذين دبّ فيهم المرح، وعندما كان الأولاد يعودون من تقديم الخدمة للإفريقيّين كانوا يحرصون على ألّا ينظروا في اتّجاه المنصّة، وهُم يعبرون القاعة، ولكنّهم كانوا يستطيعون أن يحسّوا بعيني السّيّد فوكوني على نقراتهم.

وقالوا لأنفسهم: «المحظور قد وقع، فلنُشنقْ من أجل كبشٍ. إن كنّا سنُشنق من أجل حَمَلٍ». انتشى ميكا. واشتعلت آلاف النيران الصّغيرة في جسده، فأحسّ برضاً لا حدود له. صار يطير بين الغيوم، فصارت الأرض بيضاءَ ونظيفةً عند قدميه، ورأى كيلارا تقود عربةً محمّلةً بالأحذية، وفي أعاليها فتحت نوافذ صغيرةً مطرّزةً بالذّهب حيث ستخرج إصبع قدم ميكا.

ولقد دعا المبعوث السّامي لأكل الفحل الذي جَلبه له انجامبا، وراح الاثنان يمدّان يديهما في الصّحن، وكانت الويسكي تنسكب من ثقوب سقف الرافية، وتتخلّل جسده من كلّ مسامّه. ابتهج بهجةً لا حدود لها، وكان الأب فاندر ماير الذي تحوّل إلى كلبٍ أسْود كبيرٍ، يقف ساكناً بالباب منتظراً أن يرمي ميكا له العظام، وصارت يد ميكا طويلةً، بحيث أنّها وصلت إلى الكلب، فضربته، وطردته.

وأحسّ ميكا بشخصٍ يمسك يده. قاوم في البدء، ثمّ هدأ وفتح عينيه.

- «لقد بدأت تخيفني». همس جاره، وهو يشير إلى المبعوث السّامي الذي كان ينهي خطابه، وفي تشوّشه بدأ ميكا يصفّق بعنفٍ قبل أن يصفّق أحد. كان يريد أن يقف، فشدّوه من طرف سترته.

انتظر إلى أن ينتهي المترجم من إخبارنا بما كان زعيم البيض يقوله.

أسند ميكا رأسه إلى رأس جاره، وأحاط الجار بذراعه كتفيْ ميكا، وعند أسفل المنصّة كان المترجم يشدّ أصابعه، ويترجم ما كان المبعوث السّامي قد قاله إلى لهجة مغما، وهي اللّهجة الأساسيّة في دوم.

- يقول الزّعيم الكبير: إنّه مسرور جدّاً لوجوده بينكم، وهو يشكركم على الاستقبال الذي قدّمتموه إليه، ثمّ تحدّث عن الحرب التي خضتموها معاً ضد بِيضٍ آخرين في بلده، وانتهى إلى القول إنّنا أكثر من أصدقاء، وإنّنا مثل الإخوة.. شيءٌ من هذا القبيل.

وبدأ الجميع يصفّقون بينما كان المترجم يعود إلى مقعده.

وقف ميكا على قدميْه بقوّةٍ، وكأنّ نابضاً جدّاً قذفه، وخطا خطوةً، وهو يترنّح. دفع يد جاره التي حاولت إرجاعه، وصدرت عن مجموعة الإفريقيّين همهمةٌ، وستر فوكوني نفاد صبره، ثمّ تحدّث إلى معاونه الذي كان يراقب ميكا بحرصٍ، وهو يتقدّم نحو أسفل المنصّة. كان المبعوث السّامي

مستمتعاً بالمسألة، فشجّع ميكا بهزّةٍ من رأسه، ثمّ مال على فوكوني، وتحدّث إليه الأب فاندر ماير بنعومةٍ، ثمّ اتجه إلى ميكا، وبقفا يده أزاحهم ميكا جميعاً في وقتٍ واحدٍ، ووقف المبشّر في وسط القاعة، وقد صار لونه أحمر قانياً، وبدأ ميكا يضحك بصوتٍ مرتفعٍ، وسرى الضّحك إلى الإفريقيّين، فمال فوكوني من خلف المائدة المرتفعة، وتحدّث إلى القسّ الّذي عاد إلى مكانه.

ومسح فوكوني على وجهه، ثمّ مال على المبعوث، واستدعى المترجم.

قال ميكا بلهجة مغما: «أريد أن أقول بضع كلمات لزعيم البيض».

وترجم المترجم، فابتسم المبعوث السّامي، وتحدّث إلى المترجم، فترجم قائلاً: «الزّعيم الأكبر يقول: إنّه سيسرّه أن يسمعك».

رفع ميكا بنطاله، ولحس شفتيه، ثمّ تحدّث مطوّلاً، وهو ينظر حيناً إلى المبعوث السّامي، وحيناً إلى المترجم، وعندما انتهى بدأ المترجم بالتّرجمة:

إنّ ميكا آسفٌ؛ لأنّه يقول الكلمات التّالية بعد عدّة كؤوسٍ من الخمر، ولكن هناك مثلٌ يقول: إذا أردت أن تعرف رأي صديقك بك، فاشرب معه بضع كؤوس...

وتململ البيضُ منزعجين، ومسح فوكوني على وجهه مرّةً أُخرى، وانتفخت التّجاعيد تحت ذقن المبعوث السّامي، ثمّ عادت إلى وضعها، وتابع المترجم: «إنّ ميكا يسأل عمّا إذا كان يمكنكم أن تذهبوا معه لتأكلوا الفحل الذي جلبه له ابن حَميه؛ للاحتفال بالوسام الذي أعطيتموه إيّاه، وهو يطلب ذلك؛ لأنّه منذ أن جاء الرّجُل الأبيض إلى هنا لم يسمع برجُلٍ أبيض يدعو ابن بلدٍ، ولا ابن بلدٍ يدعو رجُلاً أبيض؛ أما وإنّه يرى الجميع أصدقاء الآن، كما قال لنا الزّعيم الأكبر، فعلى شخصٍ ما أن يبدأ».

كان المبعوث السّامي ونائبه أوّل المصفّقين، وحذا البِيضُ الآخرون حَذوهم، وفرك المبعوث السّامي طرف أنفه بين إبهامه وسبّابته، ثمّ نهض، فأرجع فوكوني كرسيّه إلى الوراء، وساد صمتٌ مطبقٌ، ووقف المترجم من دون حراكٍ وسط القاعة، وهو يتشرّب كلمات المبعوث السّامي.

ورأى ميكا، الذي استطاع بشكلٍ ما أن يعود إلى مقعده، أنّ المبعوث السّامي يطير فوق المنصّة، وبَدا جسده كلّه منحنياً بفعل الثّقل الموجود تحت ذقنه. كان يتحدّث ببطءٍ وبثباتٍ كأنّ كلّ كلمةٍ يقولها هي الكلمة الأخيرة، وعندما انتهى صفّق البِيضُ، وحَذا الإفريقيّون حَذوهم، وعندما ساد الصّمت من جديدٍ قام المترجم بترجمة كلمات المبعوث السّامي إلى لهجة مغيما وهو ينظر باستمرارٍ إلى ميكا.

- إنّ المبعوث السّامي ممتلئٌ بالغبطة للدّعوة التي وجّهتها إليه. إنّه يأكل فحلك معك بفكره، وهو يتأسّف؛ لأنّه لا يستطيع أن يأتي ويأكله معك في كوخك؛ لأنّه مسافرٌ، غير أنّه يدعوك لتناول الطّعام معه ذات يومٍ، وهذا الوعد بداية مرحلةٍ جديدةٍ... وشيءٌ من هذا القَبيل.

صفّق الإفريقيّون، ثمّ تبعهم البِيضُ بدورهم، وأبْدى الإفريقيّون موافقتهم بتحريك رؤوسهم، وتوجّهت العيون كلّها إلى ميكا، وابتسم له الجميع ابتساماتٍ عريضةً، وكان أكثر أبناء بلده حماسةً قد عبر القاعة بخُطىً غريبةٍ، وهزّ يده مصافحاً.

قالوا له: «أنت الآن شخصٌ مهمٌّ. لقد قلت ما كنّا نفكّر به كلّنا. أنت الدّم الأصيل من أبيك

الباسل. نحن جميعاً في دوم نتّكل عليك».

وأصغى ميكا إلى هذه المجاملات كلّها، ورأسه مسنودٌ إلى كتف جاره. بدا كأنّه لم ينم منذ سنواتٍ، والنّوم كلّه الّذي افتقده خلال ذلك الزّمن جاء الآن، وحطّ في عينيه، وتذكّر سريره إلى جانب موقد كيلارا، ورأى نفسه مستلقياً على ظهره كعادته، وساعده الأيسر على جبينه، ثمّ بدأ يهوي في هاويةٍ لا قرار لها، حيث كان العسل يتساقط على لسانه، وبعدها لا شيء، بدأ ميكا يشخر.

وحين رأى فوكوني أنّ الجوّ في المركز بدأ يصبح مزعجاً انحنى نحو المبعوث السّامي، وكان المبعوث أوّل من وقف، وحذا البِيضُ الآخرون على المنصّة حَذوه، واستدعى فوكوني المترجم، وتحدّث إليه مطوّلاً، ثمّ خرج البِيضُ من الباب المفتوح وراءهم، بحيث لا يضطرّون إلى المرور بين الإفريقيّين الموجودين في الطّرف الآخر من الصّالة.

وصفّق المترجم بيديه طالباً السّكوت، وبصعوبةٍ ساد الصّمت، فضمّ يديه، وراح يتكلّم مع أبناء بلده الإفريقيّين: «طلب إليّ الحاكم أن أخبركم أنّ المبعوث السّامي مُتعبٌ»، وعلّق أحدهم مازحاً: «لأنّه أكل كثيراً»، وانفجر الضّحك الصّاخب، فغطّى على صوت المترجم الذي فقد أعصابه، فجأرَ صائحاً: «أيّ نوعٍ من البشر أنتم؟ أسألكم أيّ نوعٍ من البشر أنتم؟».

وفرض السّؤال صمتاً جديداً، واستغلّ المترجم انتصاره: «إنّني أسأل نفسي أيّ نوعٍ من البشر أنتم؟ لو رآكم أسلافكم في حالتكم هذه أمام هؤلاء النّاس القادمين من وراء البحار فماذا سيكون رأيهم؟ إنّني خَجلٌ بكم...».

ضاعت الكلمات الأخيرة وسط الهمهمة، فقد انقسم الضّيوف البارزون إلى معسكرين: كان هناك من يريدون الاستماع إلى المترجم، ومن يصرخون به يطلبون إليه السّكوت، ثمّ بدأوا ينقلبون على المسؤول التّعِس. من يظنّ نفسه حفيد الأقزام هذا؟ ومنذ متى يكون للعبيد الحقّ في فرض الصّمت على الأمراء؟ لقد قلب البِيض تراث الأرض، وها هو مجرّد شخصٍ تافهٍ يحاول أن يفرض الصّمت على الملوك!

ووقف المترجم وسط القاعة، والعَرق يتصبّب منه تحت وابل الكلمات. قام بإشارةٍ غامضةٍ توحي بالاعتذار، وطلب الفرصة للاستماع إليه، لكنّ هذا أثار سخط الضّيوف أكثر، واقترح أحدهم أن يشنقوه لمجرّد أن يتسلّوا، ولم ينتظر المترجم أكثر من ذلك، فخرج من الباب الواقع خلف المنصّة تتبعه موجةٌ صاخبةٌ من الضّحكات التي تطلقها الجماعة.

وقام شخصٌ ضخمٌ إلى مكانه.

- «يا سادتي». بدأ كلامه، وهو ينهي كأسه: «يا سادتي». كان هذا النّداء الذي يتملّق الإحساس بالأهميّة لدى كلّ من الضّيوف قادراً على فرض الصّمت. «يا سادتي». تابع الشّخص الضّخم: «بما أنّني سيّد أتكلّم إليكم، سيّد إيكانس، ابن أكوما العظيم».

وصفّق الجميع.

- «الآن نستطيع أن نصمت». قال عليّة القوم الإفريقيّون لأنفسهم: «الآن لن تتأذّى آذاننا بكلمات عبدٍ كلبٍ لعبدٍ».

- «يا سادتي». تابع الإيكانيّ: «أطلب إليكم أن تنسوا كلمات العبد فوراً».

-«نسيناااها». هتف الجميع: «نسيناااها».

- الآن بدأت أعرفكم.

- «إيبي». هتف الجميع، ثمّ ساد الصّمت المُطبق.

- «لا أعرف كيف يمكن لعبدٍ أن يتساءل أيّ نوعٍ من البشر أنتم». قال الإيكانيّ ضاحكاً، وهو يجد صعوبةً في البقاء واقفاً، فراح يترنّح كأنّه يقفُ على كرةٍ متدحرجةٍ: «نحن سادة». هتف أخيراً.

- «إيبي». ردّت جماعة السّادة بقوّةٍ.

- «في هذا الاجتماع». تابع المتحدّث: «لم أسمع إلّا خطاباً واحداً يستحقّ أن يدخل آذان الرّجال، وهو خطاب ميكا...».

- «إيبي». ردّت الجماعة موافقةً، ومؤكّدةً على موافقتها بصرخةٍ مع هزّاتٍ عنيفةٍ من الرّؤوس.

- كيف يمكن لعبدٍ أن يسألنا أيّ نوعٍ من البشر نحن؟ هل كان يريد منّا ألّا نظلّ كما نحن، مثلما فعل هو لمجرّد أننا أمام البِيض؟

وصفّق الجميع، فتابع المتحدّث: «أنا لا أفهم كيف أنّ هؤلاء البيض كلّهم، مثل زعيمهم الكبير، يقولون: نحن أكثر من أصدقاء، ولكنْ هل سبق لأيّ واحدٍ من الموجودين هنا أن اصطدم بيدٍ بيضاء على طبق الطّعام ذاته؟».

- «لا. لا. لاااااا». هتفت الجماعة.

- «إنّهم جميعاً يتحدّثون مثلما تحدّث الزّعيم الكبير، وعندما يعد البِيضُ بشيءٍ، وخاصّةً إذا كان مغطّىً بشريطٍ ذهبيٍّ مثل الزّعيم الكبير...».

- «تستطيع أن تنسى الموضوع». أنهت له الجماعة جملته بصوتٍ واحدٍ: «نحن نعرف هذه الوعود».

- «كنت أريد أن أوسّع الفكرة التي قالها ميكا». ختم المتحدّث كلامه، وعاد إلى مقعده.

وردّت الجماعة: «ما قلته صحيح. ميكا مثالٌ للحكمة في شخصٍ».

- «وأين هو؟». سأل أحدهم.

- «اتركوه نائماً». قال جارميكا، وكان ينظر إليه كأنّه طفلٌ. كان ميكا نائماً، ورأسه على كتفه، وكان فمه مفتوحاً، وكانت يداه الطّويلتان متدليّتين حتّى وصلت إلى الأرض من جانبيّ المقعد، ومرّر جاره كفّه على رأسه بهدوءٍ، كأنّه يلمس جثّةً.

حرّك ميكا أنفه مثل أرنبٍ، وأوغل برأسه في تجويف كتف جاره، بينما كان جاره الذي أضاءت الغبطة وجهه، قد أغمض عينيه.

وتتالى المتحدّثون عند أسفل المنصّة. كان الجميع غاضبين. هؤلاء البِيض يبالغون دائماً. كيف

يقولون: إنّهم أكثر من إخوة لأبناء البلد؟ المبعوث السّامي والفرنسيّون كلّهم كانت مقاعدهم فوق المنصّة إلى جانب اليونانيّين الذين أعاقوا الإفريقيّين عن أن يصيروا أثرياء. لم يكن هناك أيّ إفريقيٍّ على المنصّة معهم، ولم يتحدّث المبعوث السّامي حديث رجُلٍ لرجُلٍ مع أيّ إفريقيٍّ. كلّ شيءٍ كان على نحوٍ عامّ، فكيف يتحدّثون عن الصّداقة، وأنت لا تستطيع أن تتحدّث إلى المندوب السّامي إلّا مثلما تحدّث هيئة محكمة؟ لقد كان هؤلاء البِيض مُضحكين. إنّهم حتّى لا يعرفون كيف يكذبون على نحوٍ مقبولٍ، ومع ذلك يتوقّعون من الإفريقيّين أن يصدّقوهم. صحيحٌ أنّهم شقّوا الطّرق، وفتحوا المستشفيات، وبنوا المدن، ولكن ليس هناك إفريقيٌّ واحدٌ عنده سيّارة، وحين تخرجون من هذه المستشفيات تخرج أقدامكم قبلكم؛ أمّا الأبنية فقد بنوها لأنفسهم، أوَليس للصّداقة من أساسٍ آخرَ غير الاستقبال الرّسميّ، وحفلة الشُّرب؟ وحتّى عندما كانوا يشربون، فإنّهم يلمسون الكؤوس فيما بينهم، فمن أين أتت هذه الصّداقة؟

واندفعت سيّارةٌ إلى السّاحة، ثمّ وقفت مُصدرةً صوت الكوابح عالياً، وكان للأحذية العسكريّة التي نزلت منها صوت كصوت وابلٍ من الحجارة يتساقط على الحصباء.

وصاح أحدهم: «غوليه ورجاله».

وانتشر الذّعر في القاعة. انقلبت الزّجاجات، وانكسرت الكؤوس، وأخطأ الجميع في القبّعات والكيبات، دخل الحرس القاعة، واتّخذ غوليه مكانه في الممرّ. تحدّث إلى رقيب الحرس الذي وجّه الكلام إلى عليّة القوم: «غوليه...». ثمّ استدرك: «المدير يقول: إنّ الحفلة قد انتهت. لقد شربتم بما فيه الكفاية، فلا تضيّعوا الوقت. هيّا اخرجوا وإلّا..».

تبادل الإفريقيّون النّظر، ولم تَطُلّ من عيونهم حتّى الدّهشة. لقد تجاوزوا مرحلة الدّهشة. كانوا يعرفون غوليه منذ خمس سنوات إلّا أنّهم مع ذلك استغربوا أن يأتي في يومٍ كهذا، في الرّابع عشر من تمّوز/يوليو، يدعوهم فيه الحاكم كي يشربوا معه. خرجوا من المركز وقبّعاتهم تحت أيديهم، ومن دون أن يلتفتوا إلى الوراء، نحو ظلّ الحديد المموّج الذي استمعوا فيه إلى خطابٍ عن الصّداقة.

وبما أنّ فاريني -أيْ غوليه- لم يواجه أيّة صعوبةٍ في إخلاء القاعة، فإنّه لم يجد ما يليق به أن يتفقّد المقاعد. أغلق الباب وخرج مع رجاله، وبعد أن ذهب المدير وجد عليّة القوم الإفريقيّون ألسنتهم من جديد. تحدّثوا طويلاً، وبشكل مجموعاتٍ صغيرةٍ، طوال الطّريق، ثمّ تفرّقوا في الممرّات العديدة التي توصل إلى القرية الإفريقيّة.

ولم يتذكّر أحدٌ ميكا. عند وصول غوليه قام جارميكا بدفعه مذعوراً إلى وسط القاعة، وكان هذا الوسط يغلي بالاضطّراب، فارتدّ ميكا إلى مقعده مثل الكُرة، وهناك تمدّد من دون إرادةٍ، ومن دون أن يطلق تنهيدةً، ولمّا لم تلتقِ قدماه بشيءٍ استطاع أن يتمدّد بطوله كاملاً. نام، وهو يسبح في العَرق داخل السّقيفة، وحيث كان الحديد المموّج يطقطق مثل حبّات الذّرة أيّام الشّعرى في نهاية الموسم. كان مستلقياً على جانبه الأيسر، وذراعه ممدودةٌ على الأرض، وانزلق الوسام تحت إبطه، ونتيجة لحركته وهو نائم أفلت الوسام من دبّوسه. كان يشخر مثل فهدٍ، وأسنانه تصطكّ. كان ينام ذلك النّوم الذي يسمّونه في القرى نوم الموتى.

بعد حفل الاستقبال عاد الأوروبيّون كلّهم إلى النّادي الأوروبّي، وكان هذا للسّيّد بيبيناكيس الذي كان قد أقام حفلةً للاحتفال ب.»وسام الشّرف»، وهنا كان فوكوني الأعزب غير المغامر،

قد نظّم حفل الاستقبال للمندوب السّامي.

كان النّادي الأوروبّي بناءً ليس فيه شيءٌ خاصٌّ، من ذلك النّوع من الأبنية الذي لا يوجد إلّا في المستعمرات، وكان يُوجد في الوسط بين المركز التّجاري، والسّوق، والمستشفى، والمدرسة، وبيبينياكيس الذي كان مقتصداً حتّى الحقارة قد دهنه بلون المغرة؛ وهو اللّون ذاته الذي لغبار دوم، وكان الوصول إليه يتمّ بتجاوز قناةٍ ضيّقةٍ تُستعمل كمكانٍ لتجميع النّفايات، تُنَظَّفُ بين حينٍ وآخر بقليلٍ من الماء، وفي اليوم السّابق لوصول المندوب السّامي أشرف غوليه شخصيّاً على الإصلاحات التي قامت بها مجموعةٌ من العمّال جلبهم من السّجن. وضعت سعف النّخيل في كلّ مكان، وأكاليل الورد البرّيّ التي تعلّقت على السّقف الخيزرانيّ الذي غُطِّيَ بعلمٍ فرنسيٍّ كبيرٍ من الورق، وأعطى للخدم بِدلاتٍ بيضاء. وقضت مدام مونروتي، شاربة الشّاي الوحيدة في المدينة، يوماً كاملاً في تعليمهم الانحناء على أصوله.

وفيما كان المندوب السّامي ينتظر الاحتفالات القبليّة الزّاهية عصراً، فإنّه وجد في النّادي الأوروبّي جوّ أوروبّا الذي لم يكن يتوقّع أن يجده في هذا المكان الموغل في أعماق الغابات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الثّالث

1

في مناسباتٍ معيّنةٍ ونادرةٍ كان ميكا يستيقظ في كوخه على مهلٍ وبالتّدريج، وهو يسترجع وَعْيه؛ أمّا الآن فلم تكن هناك فرصة ليقظةٍ كهذه. بغتةً وجد نفسه مرميّاً تحت المقعد. كان المركز الغارق في الظّلام عرضةً لأوّل عاصفةٍ تهبّ في نهاية فصل الجفاف.

كان كلّ شيءٍ يئنّ، ويقرقع تحت الرّيح والرّعد، وبدا كما لو أنّ آلافاً من الأوعية تسكب الماء على السّقف التّنكيّ العتيق الذي كان يهتزّ، ويكاد ينخلع، وكانت الوصلات، والعوارض، وقطع الخشب تتداعى كلّها فوق رأس ميكا، فتساءل عمّا إذا كانت هذه نهاية العالم، وشقّت العتمة لمعة برقٍ، بينما قصف الرّعد الّذي تبعه هزّ الأرض تحت ردفَيْ ميكا. أحسّ بكلّ ما في معدته يقفز، ولم يتذكّر كيف صار هكذا مستلقياً على قفاه في هذا الفراغ، ويداه في الظّلمة لا تسعفانه بالتّمسّك بأيّ شيءٍ. حاول أن ينهض، لكنّ رعداً آخر ألقاه على الأرض من جديدٍ. تدحرج مثل أرنبٍ، ثمّ وجد نفسه على المقعد مرّةً أُخرى. برقٌ ورعدٌ يتناوبان مثل وميض نارٍ مضطّربةٍ، ويتساقط بسرعةٍ جنونيّةٍ. رسم ميكا الصّليب على نفسه، ثمّ قامت يداه برفع المقعد فوق رأسه، وأماله أمامه. سمع تكسّر قطعٍ معدنيّةٍ وزجاجيّةٍ، ثمّ ضاع الصّوت تحت انفجار الرّعد الّذي كان أقوى من الصّوت الأوّل، ورسم ميكا علامة الصّليب مرّةً أُخرى.

نهض مذعوراً على قدميه، وبدأ يتحرّك إلى الأمام، وفي ومضة البرق استطاع أن يرى العَلَم الفرنسيّ الكبير يخفق فوق المنصّة، وكان الماء يتصبّب من كلّ مكانٍ، واستطاع ميكا أن يحسّ بالماء عند كاحليه، وحاول أن يطوي أسفل بنطاله، ولكنّه حين وقف على قدمٍ واحدةٍ فقد توازنه، وسقط مثل جذع شجرةٍ وسط البركة التي كانت تتشكّل حول قدميه، وعندما نهض وجد أنّ السّقف التّنكيّ يكاد يلامس رأسه، فأطلق زعقةً عنيفةً، واندفع إلى الأمام في الظّلام.

هل سيموت مثل شيهم([25]) وحيداً في هذه المصيدة الكبيرة التي لا مخرج منها؟ بدأت يداه تستكشفان تموّجات السّقف. أخيراً وقعت أصابعه على مفصّلات الباب. تحسّس إطار الباب، ثمّ سحبه، وترنّح البناء كلّه. مدّ ميكا ذراعه فوق رأسه، فارتجف عندما لامست أصابعه السّقف، ونشف الدّم من عروقه. تحسّس رقبته ليرى إن كان ما يزال يحمل ميداليّة القدّيس كريستوفر، وارتاح عندما وجدها مكانها معلّقةً بخيطٍ من كيس السّمك، وبلمحةٍ أدرك ميكا أخيراً أنّه مُحاصرٌ في المركز وسط العاصفة، وأنّ الكوخ المصنوع من الصّفيح على وشك أن ينهار فوقه، ولكنّه كان قد هدأ الآن: القدّيس كريستوفر الطيّب يقف إلى جانبه.

واندفع ميكا بكلّ قوّته إلى الباب من جديدٍ. المطر الذي كان متجمّعاً فوق السّقف المتداعي سمع هطوله الآن في السّاحة فوق المياه المتجمّعة، بينما كان الجدار الذي يستند إليه قد بدأ يميل على نحوٍ خَطِرٍ، وركض ميكا نحو المنصّة، فقد انهار الجزء من الجدار الذي كان يضغط عليه، وسمح لدفقةٍ عنيفةٍ من الماء بالاندفاع إلى الدّاخل، وبما يشبه المعجزة ظلّ السّقف متماسكاً. كان الماء قد بدأ يحفر تحت الجدار الخلفيّ، وكان هذا قد بدأ يميل، وبدأ ميكا يصرخ. كان يصرخ مثل مجنونٍ أطبقت عليه العاصفة، ولم يستطع أن يستوعب كيف صار في الخندق الذي عرفه من أشجار الأُترجّة الصّغيرة الّتي غمرها الماء حتّى أواسطها.

في السّاحة كانت إمكانيّة الرّؤية معدومةً. وقف ميكا. كان بنطاله ممتلئاً بالماء، وقد بدأ ينزل بين ساقيه، وسرّه أن يكتشف أنّه حافٍ. كان هزيم الرّعد قد بدأ يضعف، وكذلك خفّ وميضُ البرق،

وتقدّم إلى الأمام حَذِراً. صار يختبر عُمق الماء بقدمه قبْل كلّ خطوةٍ، وبعدها ينقل القدم الأُخرى إلى جانبها، وأحياناً كان ينزل على أطرافه الأربعة كي يضمن عدم سقوطه، وعندما أحسّ بالحصى الكبيرة تحت يديه تنهّد ووقف. لقد صار على الطّريق.

كانت العاصفة قد هبّت على دوم بعنفٍ لم تعهده من قبْل، والدّنيا التي حُرمت من الماء منذ زمنٍ طويلٍ صارت الآن غارقةً، ومُحاطةً، ومغمورةً به، وهنا وهناك كانت الأشجار التي وقعت عليها الصّواعق تحترق مثل مشاعل جنائزيّة في اللّيل.

امتدّت صفحة الماء التي ينعكس عليها البرق إلى ما لا نهاية. كان ميكا وحيداً وسط ذلك الخضمّ الهائل، ومن دون بوصلةٍ، أو مصباحٍ، وكان المطر ما يزال يهطل، وميكا قد فقد حاجبيه منذ زمنٍ طويلٍ، ولذلك فإنّ الماء الذي يتصبّب من جبينه صار يدخل في عينيه. أطبق جفنيه، ونفخ الماء بفمه، وهو يدفع شفتيه مثل مؤخّرة البطّة. كان طبل يقرع في رأسه، وبين حينٍ وآخر راح يضرب نفسه على رقبته لتهدئة الألم الذي كان يحسّه في رأسه. التفت إلى حيث المركز الإفريقيّ، وتحت ومضة برقٍ رأى كومةً من الحديد المموّج، وعاوده الألم في معدته. لقد صار الأمر قريباً. رسم شارة الصّليب، وامتصّ إبهامه، وأجّل الصّلاة إلى ما بعد. هزّ رأسه، واحتار فيما يفعله وسط هذه المتاهة المائيّة الّتي ضاع فيها الطّريق تماماً. تذكّر كيلارا، وانجامبا، والآخرين الذين ينتظرونه لالتهام الفَحل. هل صمد كوخه في وجه العاصفة؟ قرّر أن يمشي في اتّجاهٍ مستقيمٍ إلى الأمام. لقد هدأ كلّ شيءٍ حوله على الرّغم من أنّ السّماء كانت ما تزال ملبّدةً بالغيوم، ومُنذرةً بالخطر، وخاف ميكا الذي كان يتقدّم ببطء مثل سلحفاةٍ أن ينهمر المطر من جديدٍ. إنّ العواصف الّتي تأتي في نهاية فصل الجفاف تكون في جولتين عادةً، فبعد جولةٍ من المطر والصّواعق تأتي جولتان من المطر وحْده.

مدّ ميكا خطواته، وعند كلّ خبطةٍ تحدثها قدماه، وهو يسحبهما من الماء، أو يعيدهما إليه، كان يبدو أنّ هناك ثقلاً كبيراً معلّقاً بهما، وكان ميكا يرفع كلّ قدمٍ إلى أعلى ما يستطيع، ثمّ اكتشف أنّه بهذا يُنْهِك نفسه ولا يتقدّم كثيراً.

قال لنفسه: «آهٍ لو كنت أستطيع السّباحة!». ولكنّ الماء لمْ يصل إلّا إلى ربْلتَيْ ساقيه، فكان عليه الاكتفاء بنوعٍ من مشية الإوّزة.

قال لنفسه: «الإنسان مخلوقٌ وحيدٌ». كيف له وهو ابن أكبر العائلات في دوم أنْ يجد نفسه وحيداً تماماً وسط الكارثة الّتي تمرّ عليه؟ حاول أن يسترجع إلى ذهنه أحداث النّهار، ولكنّ ذهنه كان مشوّشاً، ومن دون تفكيرٍ وضع يده على صدره، وتوقّف منزعجاً. الوسام الذي منحه إيّاه زعيمُ البِيض قد ضاع. نظر إلى الماء الذي يدوّم حول قدميه، وعاد ذهنه إلى المركز. ضيّع الوسام أم إنّ أحدهم سرقه منه؟ كان يأمل في أن يكون قد سُرِق، فلو أنّه ضيّعه لما كان هناك أيّ أملٍ في العثور عليه بعد عاصفةٍ كهذه. رسم الصّليبَ مرّةً أُخرى، وقال: «يا أبانا، وأحيّيكِ يا مريم العذراء، ثمّ مصّ إبهامه».

وفكّر مرّةً أُخرى بوِسامه، ولكنْ أين يا ربّ السّموات يمكن أن يكون قد ضاع؟ وتذكّر نفسه في سيّارة الأب فاندر ماير.

- «النّصّاب». قال بصوتٍ مرتفعٍ، ثمّ همس لنفسه: «يا ربّ، سامحني إن كان هذا كفراً. لا أعرف ما أفعله. لقد ضيّعتُ الوسام، وضيّعتُ كلّ شيءٍ.. كلّ شيءٍ، وأنا وحيدٌ. وحيدٌ تماماً في

هذه الدّنيا».

واستأنف تقدّمه وحيداً وسط المطر، وكان يبدو تحت وميض البرق ضخماً مثل جثّةٍ ترفعها معجزةٌ من الماء، ومثل رؤيا وسط العناصر الهائجة.

وأخيراً لمح ميكا أوّل الأكواخ في القرية. بدت ظلال الأسطح ووراءها السّماء البرتقاليّة التي كان البرق يومض فيها ومضاتٍ متلاحقةً، وأحسّ بهبّةٍ مفاجئةٍ من الدّفء. لقد غادرته رقصة القدّيس فيتوس التي كانت تجعله يرتعش من رأسه إلى قدمه، وقرّر أن يذهب، ويجفّف ملابسه في محلّ ماما تيتي.

لم تكن القرية إلى جانب الطّريق تماماً. ينزل إليها المرءُ بمنحدرٍ، ثمّ بطريقٍ تتعرّج بين بيّارة أشجار المانغا حيث كان يوجد في الماضي مستنقع.

ولم يعُدْ ميكا قادراً على التّفكير في أيّ شيءٍ آخر. ملأت عقله ماما تيتي. انتظر ومضة برقٍ كي يحدّد اتّجاهه بين أشجار المانغا.

وصرخ محتجّاً بصوتٍ عالٍ: «ما الذي ينتظره الآن هذا البرق النّتن؟». وانهمر عليه ضوءٌ مباغتٌ، فرفع ذراعيه يحمي بهما عينيه.

- «من الذي يتخبّط هناك؟». سأل بعصبيّةٍ، ثمّ وبصوتٍ مشبعٍ بالضّراعة: «أيّها الإنسان المزوّد بالمشعل الكهربائيّ، لقد أرسلك الله إليّ. تعال وساعدني في العثور على الطّريق...».

واقترب الضّوء. كان ميكا يستطيع سماع الأحذية التي تخبّ في الماء، وحاول أن يبعد عينيه عن الضّوء الذي يعميه.

- «لا توجّه الضّوء إلى عينيّ أيّها الصّديق الذي أرسلته إليّ العناية الإلهيّة. أضِئ أرضَ الله كي أستطيع رؤية طريقي... يا صديقي. الطّريق فقط».

- «طيّب. يكفي». جاء صوتٌ مكتومٌ.

ثمّ انطفأ الضّوء، فغرق ميكا في ظلامٍ.

وقبْل أن يفيق من المفاجأة اندفعت قبضةٌ حديديةٌ في معدته جعلته يترنّح، وأحسّ ميكا بنفسه يرتفع في الهواء. هل صار بين براثن نسرٍ يحلّق به في الجوّ؟ كشفت له ومضة البرق الّتي كان ينتظرها عن شكلين شبه مخروطين بقبّعتين طويلتين. حاول أن يمسّ الأرض بقدميه، ثمّ أطلق صرخةً حادّةً قطعها ارتطام جسمه السّاقط في الماء، وحينها هوى، وفقد وَعْيه تماماً.

استعاد وَعْيه، وكان ضوء المشعل يغمره. استطاع أنْ يرى وجْهيّ الشّرطيّين ببدلتيهما فوقه، وهُما يصيحان: «انهض أيّها الخنزير! أين أوراقك؟ آه؟ أوراقك؟ من أين أنت قادم؟ وما الّذي تفعله هنا... آه؟ من معك؟ أين الآخرون؟».

تحت وطأة الصّدمة، وآثار الدّوار المتبقّي من الشّراب الذي كان قد تناوله، والمطر الذي كان ما يزال ينهمر، ووسط تشوّشه، أدرك ميكا أخيراً ما كان يجري. نهض على قدميه من دون تفكيرٍ، وساقاه ترتعشان، وبدأ يبحث ملهوفاً في جيوبه.

وعلق إبهامه الأيمن بالجيب الأيسر لسترته، فبدأ يفكّ أزرارها كي يستطيع أن يمدّ يده فيها

بسهولةٍ أكبر، وبدأ يخلعها قليلاً، وقد فكّ الحزام الذي يمسك بنطاله.

وانسحق عنقه بإطباقةٍ حديديّةٍ عليه حتّى صار يسمع أصوات أجراسٍ ترنّ في رأسه، وصرخ الشّرطيّ: «غطّ مؤخّرتك القذرة، وأرني أوراقك». وبصق مستعيذاً.

رفع ميكا حزامه، وزرّر سترته، واستمرّ يبحث في جيوبه، وهو يضرب نفسه هنا وهناك على القماش المبلّل كأنّه يطارد بعوضاً أحاط به.

وراح ميكا يتأتئ، وهو يصفع نفسه هنا وهناك: «ليست أوراقاً.. إنّ الحاحاحاحاكم... طلب إليّ أن أجْلب... إنّه الوسام... الوسام الذي... الّذي جلبه لي».

- «يكفي». قال الشّرطيّ: « أيّ نوعٍ من المغفّلين تظنّني لتسمعني هذا الهراء كلّه؟ لقد جئت متستّراً بالعاصفة لتسطو على المنطقة الأوروبّيّة. أعطني رقمك الآن».

- «لا». صرخ ميكا محتجّاً: «أنا رجُلٌ عجوزٌ. الحاكم صديقي. يا حضرة الضّابط، المسألة مجرّد مسألة الوسام..».

- أغلق فمك أيّها العجوز الخَرِف. ألا تخجل؟ هذه هي الأكاذيب التي تحكيها امرأةٌ في السّرير.

- أنا مسيحيٌّ يا حضرة الضّابط، والفم الذي يستقبل اسم المخلّص ممنوعٌ عليه أن يكذب... يا حضرة الضّابط.

- سيستقبل فمك شيئاً من خراء القطط إنْ لم تكن حذراً.. أيّها السّلحفاة العجوز.. تعال معنا.

وسار ميكا بأسرع ما يستطيع. كان الشّرطيّ يدفعه من الخلف، ويده على رقبته، وهو شِبْه راكضٍ، وتقطّعت أنفاس ميكا. بين حينٍ وآخر صار يطلق تنهيدةً، وكان يسمع الشّرطيّ يلهث مثل عدّاء المسافات الطّويلة، كما تبلّل جسده كلّه بالماء الّذي كان يرشّه هذا الشّرطي.

- «لم أعد أستطيع الاستمرار». قال ميكا، وهو يتوقّف: «لم أعد أستطيع...». وسقط في الماء. أمسك الشّرطيّ بياقة سترته، وجرّه مسافةً ما مثل كيسٍ عتيقٍ. «يا رجُل». توسّل إليه ميكا: «ما الذي فعله بك رجُلٌ في مثل سنّي؟».

ورفسه الشّرطيّ في ظهره، فأطلق ميكا صراخاً نادباً، وسقط رأسه على كتفه، وأمسك الشّرطيّ بأذنه، وقرّب المشعل من وجهه، ورفع جفنه بإبهامه، وارتعشت عين ميكا من الضّوء.

- «انهض. انهض». صرخ الشّرطيّ: «هيّا. تحرّك. أم إنّك تريدني أن أذيقك إيّاه؟». وارتمى رأس ميكا مرّةً أُخرى على كتفه، وسحبه الشّرطيّ على الأرض نحو مسيل، ودفع برأسه في الماء الجاري، وشخر ميكا مثل كلبٍ، ثمّ فرك عينيه. تركه الشّرطيّ، وراح ميكا يَلْعق شفتيه، ثمّ مدّهما ونفخ. اعتمد على ركبتيه وذراعيه حتّى وقف، وهو يترنّح، وكاد يسقط من جديدٍ. أمسك به الشّرطيّ من ياقة سترته، وبدأ ميكا يَشْرَق، ثمّ أطلق صرخة شمبانزي مذعور. حرّره الشّرطيّ من قبضته، فارتمى على الأرض من جديدٍ، فعاد مرّةً أُخرى إلى الإمساك به من ياقته.

- «تابع طريقك أيّها الصّديق الودود للحاكم». نَهَره الشّرطيُّ مع ضحكةٍ صاخبةٍ: «انظروا إلى هذا الشّيطان العجوز! هيّا! تحرّك!».

- «يا بنيّ». قال ميكا، وهو يشهق ليتنفّس: «يا حضرة الضّابط، إنّك شابٌّ صغيرٌ في مثل عمر

ابني، لماذا تريد أن تسفك دم عجوزٍ في مثل عُمر أبيك؟ يا حضرة الضّابط، لماذا تريد أن تحلّ اللّعنة عليك وعليّ؟ يا حضرة الضّابط، هل تنزلق كلماتي عنك مثلما ينزلق الماء عن ظهر البطّة؟».

- «اخرس». صاح الشّرطيُّ مزمجراً، وهو يهزّه مثل شجرة المانغا. ترنّح ميكا، ولكنّه لم يعُد يتذمّر. حاول أن يتملّص من القبضة الحديديّة التي تمسك بياقة سترته، وحينما وجد جهوده غير مجديةٍ استكان وحدّق الاثنان أحدهما في الآخر مثل كلبين صينيّين في العتمة. بصق الشّرطيُّ باحتقارٍ، ثمّ أفلت ياقة ميكا، وحرّك ميكا عنقه حركةً دائريّةً، وقرّب الشّرطيُّ مشعله مرّةً أُخرى من وجه ميكا الذي رفع يديه إلى عينيه، وأطفأ الشّرطيُّ مصباحه.

- «تابع طريقك يا صديق الحاكم». قال، وهو يدفعه أمامه، وكان يرفق كلماته بِجَعل الضّوء السّاطع يسقط على ميكا، وهو يرفع المصباح فوق رأسه. مشيا قليلاً بصمتٍ، وبين حينٍ وآخر كان البرق يضيئهما، وهُما يسيران واحداً وراء الآخر، وميكا مستمرٌّ في مناجاته لنفسه، وهو يلوّح بيديه.

- يا حضرة الضّابط، يا بنيّ، استمع إليّ لآخر مرّةٍ. أنا لست لصّاً يا بنيّ. لم يسبق لأحدٍ من عائلة ميكا أن كان لصّاً. لقد ذهبت لاستلام وسام الصّداقة يا حضرة الضّابط. وسام الصّداقة فقط...

- ....

- أنا واحدٌ من أهالي دوم يا ابن الشّمس المشرقة الذي لا يعرفني. يا حضرة الضّابط، أنا ذهبت كي أُعْطَى وسام الصّداقة.

- «إنّك تثير أعصابي». انفجر الشّرطيّ صائحاً: «ستظلّ مستمرّاً في عويلك حتّى ترى غوليه!».

- «ألا ترى يا بنيّ أنّنا نستطيع أن نتّفق؟». سأل ميكا من دون أن يلتفت: «لِمَ أنت مصمّمٌ على تسليمي إلى هؤلاء الغرباء؟ يا بنيّ، لِمَ أنت مصمّمٌ على تسليمي إليهم؟ كلماتي تسقط...».

- هل ستغلق فمك؟

صمت ميكا، ثمّ رفع ذراعيه. وصلا إلى المخفر. سحب الشّرطيُّ الباب الذي ظهر تحته خيطٌ من الضّوء بشدّةٍ عنيفةٍ، ثمّ دفع بميكا إلى داخل الغرفة.

واستيقظ الرّقيب الإفريقيّ الذي كان نائماً، وفمه مفتوحٌ على الطّاولة، وبدأ يشتم، وتراجع ميكا خائفاً. أغلق الشّرطيّ الّذي جلبه الباب، ودفع ميكا من أمامه، ثمّ وقف باستعدادٍ أمام الرّقيب. ردّ الرّقيب بتحيّةٍ فاشيّةٍ، ثمّ قال آمراً: «استرح».

مشى الشّرطيّ، ووضع قبّعته على الطّاولة حيث كان الرّقيب يفتح كتاباً. رفع عينيه فوق المصباح إلى حيث كان ميكا واقفاً، ثمّ حولهما إلى زميله الذي كان يمرّر إبهامه على جبينه، ثمّ عاد بنظرةٍ إلى الكتاب، وأخيراً توجّه إلى مأموره بنظرة تساؤلٍ.

- «لا شيء مهمّ». قال المأمور، وهو يلتفت إلى ميكا، ويستقدمه بتلويحة يده: «تابع». قال لميكا الذي كان يجرّ قدميه إلى الأمام، ويداه متصالبتان على بطنه مثل نعجةٍ تُساق تحت المطر.

وعندما صار تحت النّور مال الشّرطيّ على رئيسه الذي كان يستمع إليه، وذقنه بين كفّيه، وهو

متّكئٌ على كوعه فوق الكتاب.

- «يتسكّع بقصدٍ مشبوه». قال الشّرطيّ، وهو يلتفت آليّاً إلى ميكا، ثمّ مال مجدّداً على أمره: «بلا ضوءٍ، بلا أوراقٍ. لا شيء. يجب أن يرى غوليه...».

رفع الرّقيب عينيه عن الكتاب، ثمّ نظر إليه ثانيةً، ثمّ رفعهما من جديدٍ نحو زميله: «شخصٌ تافهٌ، أليس كذلك؟ لا نريد لهذا اللّوطيّ العجوز القَذر أن يوسّخ الحُجرة التي دهنّاها مؤخّراً». ثمّ نهض وانحنى على الطّاولة، وهو يواجه ميكا، وسأله: «من أين أنت؟».

- «من... من...». بدأ ميكا الكلام، ولحس شفتيه.

- «يقول إنّه صديق المندوب السّامي». شرح الشّرطيّ المسألة: «وقد ضيّع الوسام الذي منحه إيّاه، وهو لورد أصيلٌ وحقيقيٌّ... هذا الشّخص».

نظر الرّجُلان إلى ميكا بصمتٍ، فأطْرق بعينيه مثل فتاةٍ خجولٍ، وانفجر الشّرطيّان بالضّحك، وتنحنح ميكا.

- «اسمك؟» سأله الرَّقيب.

- ميكا.....

- «ميكا!». كرّر الشّرطيّ.

عاد الرّقيب إلى مقعده وراء الطّاولة. هزّ كتفيه، ثمّ غطّس قلمه في المحبرة. تأكّد من وجود القلم بين إصبعيه، وأماله برفقٍ على باطن إبهامه، ثمّ مال برأسه على كتفه اليمنى، ومدّ لسانه الكبير مثل كلبٍ على وشك السّفاد، ونظر إليه مأموره مدهوشاً، وابتسامة إعجابٍ مباركٍ على وجهه، ورفع الرّقيب مرّةً أُخرى عينيه فوق المصباح.

- «ميكا؟ آه؟». كرّر الاسم، كأنّه يقوله لنفسه.

- «ميكا». قال الشّرطيّ الذي كان ينحني فوق رئيسه، وكانت يَد الرّقيب تتلوّى على الكتاب. تكرّرت الحركات ذاتها عدّة مرّاتٍ عندما أعطى ميكا اسمه المسيحيّ، لورنس، الذي لفظه «رورون» والذي كتبه الرّقيب «رورو» حسب تهجئة مساعده.

- «طيّب». قال الشّرطيّان في وقتٍ واحدٍ، وكلّ منهما ينظر إلى الآخر مهنّئاً. أخرج الرّقيب رزمة مفاتيح من الدّرج، وأمسك مساعده بالمصباح، ومضى ليفتح الباب، كان المطر ما يزال يتساقط في الخارج. كان مطراً جميلاً يتساقط مثل غيمةٍ من الدّبابيس، وهو يمرّ وسط الهالة من الضّوء التي رسمها المصباح.

- «مطر للسّاحرات». قال الشّرطيّ، وهو يخرج.

- «إلى الأمام». صرخ الرّقيب بميكا، «وبدأ ميكا يتعثّر بنفسه، وهو يحاول أنْ يخطو على هَدْي خُطى الشّرطيّ الذي يمشي أمامه مع الضّوء. صارت أصابع قدمه تضرب كعب القدم الأُخرى، فقفز قفزةً كبيرةً مثل ديكٍ مروّعٍ، محاولاً تخطّي المسافة التي ازدادت بينه وبين الشّرطيّ السّائر أمامه».

- «هذا الرّجُل مجنونٌ». قال الرّقيب. التفت معاونه، ورفع المصباح إلى مستوى وجه ميكا،

فحوّل ميكا وجهه إلى الظّلمة.

- «من هنا». صاح الشّرطي.

دار حول الشّرفة، ثمّ وقفوا قرب بابٍ صغيرٍ مصنوعٍ من خشب صندوقٍ للخمر. أمسك الشّرطيّ المصباح للرّقيب الّذي نزل ليعالج القفل. فتح الباب، وتقدّم ميكا من العتمة، ثمّ التفت إلى الشّرطيّين.

- «حفظكما الله».

ووجّه إليه الشّرطيّ رفسةً أفقدته توازنه، وأسقطته في الدّاخل، وأقفل الباب عند قدميه، ووجد ميكا نفسه مرّةً أُخرى في الظّلام الدّامس. تقدّم بيدين ممدودتين أمامه، مثل إنسانٍ يمشي في نومه إلى أن لمس الجدار بأطراف أصابعه. استند إليه، ثمّ انزلق نحو الأرض. مسح وجهه بيديه، ثمّ نفضهما مدهوشاً، وعاد لتلمّس زاويتيْ فمه، وظلّ على هذا الوضع، وهو يحاول أن يعوّد عينيه على الظّلمة، وأزّتْ حول أذنيه بعوضةٌ، ولمّا كان ميكا غارقاً في أفكاره، فإنّه لم يُعِرها اهتماماً. لم يسبق له قبل اليوم أن واجه نفسه على هذا النّحو، فلم يعرف كيف يمسك بالأفكار والصّور الّتي راحت تقفز في ذهنه، وظلّ لمدّةٍ طويلةٍ، وذقنه بين كفّيه، ثم بغتةً صرخ:

- «يا ربّ».

مرّ بيده على رأسه، ثمّ على خدّيه. كان في وسعه سماع قطرات الماء التي تنزل على الإسمنت. تنهّد تنهيدةً طويلةً، وعند نهايتها تمتم مرّةً أُخرى: «يا ربّ»، ثمّ مدّ يديه، وهزّ رأسه من جهةٍ إلى أُخرى، وعاد فأمسك رأسه بيديه. أحسّ كم هو مُتعَبٌ الآن. صار يحسّ بوطأة كلّ شيءٍ عليه، ودفْعه له في هذه الظّلمة: البعوض الصّاخب، الغرفة العارية، الباردة مثل الخشخاشة، ([26]) التي صار يحسّ بنفسه فيها يتجمّد ويتحوّل إلى جثّةٍ، وفوق هذا كلّه أحداث اليوم التي جاءته بصورٍ أحسّ أنّه يغرق فيها، وتمدّد على الأرض ليريح آلام ظهره.

- «يا للعار!» قال بصوتٍ مرتفعٍ: «يا للعار!».

نهض واستند إلى الجدار، ثمّ ترك نفسه ينزلق من جديدٍ إلى الأرض، ومن جديدٍ مدّ رجليه.

- «ما أشدّ بؤسنا!».

في الخارج زقزق طائرٌ ليليٌّ، وأحسّ ميكا ببؤسٍ شديدٍ. لقد أعاد صوتُ الطّائر الحزين إلى ذهنه سريره الخيزرانيّ، والنّار الهائلة الّتي تشعلها كيلارا في اللّيالي الممطرة. في أوقاتٍ كهذه كان يحبّ أن يستمع إلى وقع المطر على سقف الرافية بينما يرتخي جفناه نعاساً، وكان يمرّر ذراعه تحت رقبة كيلارا، وكانت ترخي شعرها المجدول في طيّة إبطه، وفاضت عيناه بالدّموع.

زَفر من جديدٍ: «ما أشدّ بؤسنا.. ما أشدّ بؤسنا!». وكرّرها، ثمّ استردّ نفَسه.

مدّ يديه ليشدّ على كتفه في الظّلام كما كان يفعل دائماً عندما كان يريد أن يستعيد ثقته، ولكنّ هذه الحركة أفقدته توازنه.

قال لنفسه: «الإنسان وحيدٌ في العالم»، وثبّت ردفيه إلى الجدار قدْر ما استطاع. أمسك رأسه بيديه. كيف يمكن له، هو سليلُ آل ميكا العظماء، «العصا التي لا تهزّها العواصف»، و«النّهر

الذي لا يخشى الغابة»، و«الأصلة[27]»، و«الصّخور»، و«نبتات القطن»، و«الفِيَلة»، و«الأُسُود»، ابن الرّجال الذين لم يسبق لهم أن انحنوا أمام قوّة أيّ إنسانٍ آخر، كيف يمكن لهم أن يعاملوه هكذا، كما لو أنّه...، ولم يعرف بماذا يشبّه نفسه.

وقع ميكا فريسةً لأفكارٍ متصارعةٍ. بدأ يستمتع بالأعذار التي سيقدّمها الشّرطيّان لغوليه، وراح يتخيّل المشهد: سيجرّونه أمام البِيض كما يفعلون دائماً مع أناسٍ في مثل وضعه، وسيطرق برأسه قليلاً ليحقّق تأثيراً أفضل للمفاجأة، ثمّ سوف يغرز عينيه كالخنجر في وجه الرّجُل الأبيض، ويبيض وجهه غوليه. آه! يا للشّرطة المساكين، بمَ سوف يتشبّثون، وهم يتلعثمون بأعذارهم؟ ولكنْ هل سيقبل، هو ميكا، هذه الأعذار؟ لقد كان احتقارهم له شاذّاً لا يُغتفر. أساساً منذ أيّام المسيح نفسه، كانت الشّرطة دائماً كلاباً منحطّةً، وحتّى اليوم مازالوا لا يستطيعون التّمييز بين إلهٍ، أو رجُلٍ شريفٍ، وبين لصٍّ. هاه! أيّة مخلوقاتٍ حقيرةٍ هُم! ليس من اللّائق الحقد عليهم، وحاول ميكا في الظّلام أن يرسم الحركة الكريمة التي سوف يقوم بها بيده ليسامحهم، بينما في الوقت ذاته، وفي أعماق قلبه، يقذف بهم إلى الشّيطان.

أنعشه الاحتقار الذي أحسّه نحو الشّرطة، والإحساس ببراءته، فاستعاد هدوءه، ولكنْ يا ربّ، ما فائدة أن يكون المرء بريئاً ومتواضعاً في هذا العالم الذي لم تعُد تفيد فيه البراءة، أو ينفع فيه التّواضع؟ وحيث صار الإنسان أتفه من حبّة رملٍ في الصّحراء؟ وأحسّ ميكا بالشّيخوخة، ولكنْ، والله يعرف، لم يصل بعُد إلى المقبرة.

عندما كان شابّاً لم تستطع قوّة كائنٍ بشريٍّ أن تنزل كتفيه إلى الأرض، وهذا ما سيجعله واضحاً للشّرطيّ. مشى نحو باب الحُجرة، وفوجئ بأنّه مقفلٌ، فانهال عليه بالرّفس.

وصاح: «يا عبيد غير المختونين! افتحوا. انظروا إلى ميكا الحقيقي! أيّها الخنزير! هل تجرؤ على مواجهتي؟ لوحا كَتفيّ لم ينزلا إلى الأرض أمام قوّة إنسانٍ، يا أبناء العاهرات!».

وفيما كان يقول ذلك راح يتمشّى جيئةً وذهاباً في الظّلام. نزل بركبته على الأرض، وهو يمدّ يده اليمنى نحو خصمه الوهميّ، كما اعتاد أن يفعل عندما كان شابّاً يواجه تحدّياً للمصارعة. حرّك كتفيه بصرخةٍ عاليةٍ ليزيح بها الحديد المموّج، ثمّ انفجر في ضحكٍ معتوهٍ جعل جسده يرتعش، وعاد لإطلاق شتائمه على الشّرطة.

استمرّ في ذلك حتّى أحسّ بقطرات العَرق على وجهه، ثمّ انتبه إلى أنّ ملابسه قد جفّت. كان يودّ أن يستمرّ في الصّراخ، ولكنّ صوته بُحّ، وحين تكلّم كان صوته مثل أصوات المجذومين، ومثل صوت الرّيح التي تمرّ في الشّقوق.

أطلق شتائمَ أُخرى على الشّرطة، ثمّ توقّف خشية أن يفقد صوته نهائيّاً. قرفص على كعبيه، ثمّ نزل على الأرض الإسمنتيّة، وجعلته البرودة يحسّ بالتّحسّن.

- «خنزير». همس مرّةً أُخرى.

نام، وهو يتصوّر كيف سيضرب أوّل شرطيٍّ يفتح الباب في الصّباح، وخَجل ميكا حين أدرك بأيّ عمقٍ كان نائماً، فقال بصوتٍ مرتفعٍ: «ليس بيدنا حيلة في أجسادنا... ما أشدّ بؤسنا!».

فرح لعودة صوته. لا شكّ أنّه الضّحى؛ لأنّ ضوء النّهار الذي يتسرّب من شقوق الباب، ومن شقوق الحديد في السّقف، وجدران الحُجرة كان كافياً لإضاءة الغرفة، ورأى ميكا أنّ الغرفة عاريةٌ

تماماً. كانت الجدران قد دُهنت لِمَحْو الرّسوم البذيئة، واستطاع ميكا أن يتبيّن هذه الرّسوم وراء الدّهان الأبيض. هذا هو الأمر إذن. حُجرة المخفر! قفص الحيوان! إنّهم لا يقدّمون حتّى كرسيّاً للسّجين كي يجلس عليه، وأحسّ بشيءٍ يصل إلى حلقه، وبدا أنّ عينيه تحترقان. اضطرّ إلى التّماسك بشدّةٍ كي لا يسقط على ركبتيه. درج فردتيْ بنطاله، وكُمّيْ سترته الخاكي، وبدأ يقوم بحركاتٍ تليينيّةٍ، مثل ملاكمٍ يستعدّ لصوت الجَرس.

وبدأت عظامه تطقطق، ثمّ عندما توقّفت الطّقطقة تقدّم، ووضع عينه على أحد شقوق الباب، وراح ينتظر.

وخفق قلب ميكا بعنفٍ عندما سمع شخصاً يحرّك القفل في الخارج. تراجع، وقد أدرك متألّماً بأنّه ليس لديه شيءٌ جاهزٌ ليقوله لغوليه، وعندما فتح الباب كان ميكا يتّكئ على الجدار، وذراعاه على صدره.

نظر إليه الشّرطيّ باستظرافٍ، وقد عرفه ميكا من شكله الضّخم، ثمّ تقدّم نحوه، وحاول ميكا أن يزيح نفسه، ولكنّ جسده كلّه بدا كأنّه يرزح تحت ثقلٍ كبيرٍ، وعندما وصل إليه الشّرطيّ أمسكه من ياقة سترته:

- «اخرج». صرخ به: «سنرى غوليه».

أحسّ ميكا بنفسه يرتجف من رأسه إلى قدمه، وكما لو أنّه في حُلمٍ، أمسك بذراع الشّرطيّ، نعم، بالطّريقة ذاتها التي يمسك بها رأس شيهم يراه نصف ميّتٍ في إحدى مصائده، وأحسّ بأصابعه تغرق في لحم الرّجُل النّاعم، مثل جسم أفوكادو ناضجةٍ. قفز الشّرطيُّ متراجعاً من أنّه في أعماقه كان يودّ لو ترك الأمور تسير كما هي عليه، فعلى أيّة حالٍ يستطيع هذا الأخرق الضّخم أن يستفيد من الموضوع، ومع ذلك نزل على إحدى ركبتيه إلى الأرض، وتحدّى الشّرطيّ الضّخم أن ينازله، وقال له: «ليلة أمس كنتَ الأقوى؛ لأنّني لم أفهم الموضوع؛ أمّا الآن فإذا لم يكن ردفاك محشوّين بالرّمل دعنا نُسوِّ المسألة هنا من دون شهودٍ..».

واحتار الشّرطيّ، فلم يعرف ماذا يفعل. خَطا خطوةً نحو ميكا الذي تراجع متحفّزاً، بينما كان الشّرطيّ يتراجع بثلاث خطواتٍ إلى الوراء. قال له ميكا إنّه ابن لعنة امرأةٍ؛ أمّا الشّرطيّ فنفخ في صافرته يستدعي زملاءه.

شعر ميكا بنفسه يُحمل عن الأرض على أيدي مجموعةٍ من الكتّافيّات الحمراء، ثمّ يصبح على أكتافهم، ومرّر أحدهم قيداً على رسغه. حاول أن يصرخ، ولكنّ الاعتزاز الذي أحسّه من مهاجمة هذا العدد من الشّرطة دفعةً واحدةً جعله يصمت، ودفعوه إلى مكتب غوليه، وسحب غوليه سوطه، ونزل به مرّتين، ثلاث مرّات، أربع مرّات، عشر مرّاتٍ على كتفيْ ميكا، ثمّ بصق على وجه ميكا، وأشار إلى الشّرطة بالخروج.

- «من هذا المعتوه؟». سأل.

وضرب الشّرطيّ كعبيه، ثمّ رفع يده بآليّةٍ إلى قبّعته، ولكنّ هذا الطّقس أثار غضب غوليه الذي احمرّ وسأل من جديدٍ عمّا يجري، وبلع الشّرطيّ ريقه، ثمّ استجمع سُمّه كلّه في نظراته التي وجّهها نحو ميكا، وقال من دون توقّفٍ، وبكلامه الموجز: «هو»، وأشار إلى ميكا: «لا شيء، لا أوراق، لا ضوء...».

وتقدّم غوليه من ميكا، فاضطّرب قليلاً أمام نظرة البراءة المجروحة التي كانت على وجه العجوز الأسْود، وحكّ صدغه بنهاية سوطه، ثمّ أمر الشّرطيّ بالخروج، وحاول أن ينتزع ابتسامةً من ميكا بأن بدأ يضحك، ولكنّ ميكا ظلّ جامداً، وراح يستعرض غوليه من قدمه إلى رأسه، ثمّ أطلق عينيه بعيداً، ووضع فاريني يده على كتفه فخفض ميكا رأسه، وبرز فكّاه من خدّيه غضباً، وتحرّك ميكا، ثمّ صفّر من بين أسنانه وقد نفد صبره، ووضع غوليه يده تحت ذقنه، ورفع له رأسه، ولكنّ عينيْ ميكا ظلّتا مطرقتين إلى الأرض بثباتٍ، وأبعد غوليه يده فترك ميكا رأسه يسقط على صدره، واستدعى غوليه مترجماً.

سأل: «ما قصّته؟».

قام المترجم بحركة ارتباكٍ من شفتيه، ثمّ هزّ كتفيه، وأطرق غوليه برأسه، ثمّ حكّ صدغيه مرّةً أُخرى بالسّوط وبعدها تكلّم مع المترجم، وعندما انتهى وضعَ الشّابُّ يده على ذراع ميكا، وحرّك ميكا شفتيه، وأبعد نظره عنه. ولم ييأس المترجم، ظلّ لمدّةٍ طويلةٍ يترجم ما قاله الرّجُل الأبيض إلى لهجة مغيما، وعندما انتهى مرّر ميكا كفّه على شفته، وقال للمترجم، وهو ينظر أمامه بثباتٍ:

- «أنا مُتعبٌ جدّاً، مُتعبٌ إلى درجة أنّه ليس لديّ ما أقوله لغوليه. يستطيعون أن يفعلوا بي ما يشاؤون. إنّه يسألني من أنا. قل له إنّني مسطولٌ كبيرٌ كان ما يزال حتّى يوم أمس يؤمن بصداقة الإنسان الأبيض. أنا مُتعبٌ. يستطيعون أن يفعلوا بي ما يشاؤون».

حكّ ميكا أنفه، وتنفّس بعمقٍ، ثمّ مرّر قفا كفّه على طرف أنفه، وبينما كان المترجم يترجم كان فاريني ينظر نظرةً غريبةً إلى ميكا، وبين حينٍ وآخر كان ينظر بانزعاجٍ إلى الشّرطة الّذين كانوا يتابعون الاستجواب من الطّرف الآخر من الشّرفة، وعندما انتهى المترجم قام الحاكم باستدعاء الرّقيب، ثمّ دخلوا إلى المكتب.

ولم يقم ميكا حتّى بالالتفات. لقد عاد سنواتٍ عديدة إلى الماضي. كان ذلك عندما كانت قرية جدّه الرّهيب قائمةً هناك وراء بيوت البِيض هذه التي يراها أمامه الآن.

ما الذي بقي من قرية آل ميكا الكبيرة، آل ميكا الذين كانوا على هذه الأرض رجالاً، ورجالاً حقيقيّين؟ ومرّت سحابة حزنٍ على عينيْ ميكا، وحكّ ذقنه بيده اليسرى. قال لنفسه: «علينا أن نتعلّم الثّبات على هذه الأرض. أحياناً تكون نهايةً صعبة... من كان يظنّ أنّ أسياد الأمس سيكونون عبيد اليوم؟ الميكا، الرّجال الأُسود، رجال الرّعد، رجال السّماء، الرّجال الّذين كانوا مثال القوّة، وكانوا يحكمون الأرض والسّماء في هذه البلاد...».

أغمض ميكا عينيه. رأى مرّةً أُخرى، أوّل رجُلٍ أبيض، كم كان عمره يومها؟ لم يستطع أن يحسب. تذكّر أنّ أمّه اعتادت أن تأخذه إلى النّهر حيث كانت نسوة القرية يستحمِمْن، وكان صغيراً مدلّلاً لا يزعج وجوده النّساء العاريات، وكانت أمّه تتركه يمشي بخُطاه الصّغيرة على الضّفّة، حيث لا يصل الماء إلى كاحليه، ثمّ كانت تضعه على ظهرها وتعود به إلى البيت في القرية.

وهبط الّليل على ذكريات ميكا عن تلك السّنوات من حياته. تذكّر الختان، ثمّ الحمّى التي انتشرت في البلاد في الوقت الذي كان جرحه يشفى. كانت الطّبول تُقرع من الصّباح حتّى المساء، ثمّ من المساء حتّى الصّباح، وكان هناك حديثٌ عن وجود شبحٍ في البلاد. كان أبيضَ كالكلس،

وله عينا فهدٍ، وشعرٌ طويلٌ، مثل عُرْف الحصان، وحدثت استعداداتٌ لخوض حربٍ ضدّه، وتذكّر ميكا الحشْد الكبير الذي اجتمع في إيوان جدّه، وبدأ شحذ الرّماح والسّواطير، وقُطعت الحِراب، ودُهنت رؤوس السّهام بالأستروفانتين،([28]) ودهن الرِّجالُ أجسادهم بالمراهم التي تجعلهم محصّنين من الجراح، ثمّ حدثت الرّحلة الكبرى نحو منطقة نهر التّمساحين. ميكا مثل الأولاد الآخرين الذين ظلّوا مع النّساء، نظر إلى رجولته المستجدّة بجديّةٍ تامّةٍ، وكانت مفرحةً لأمّه الطّريقة التي جاء بها يطلب الطّعام، وهو يبتلع الهواء ليجعل صوته أعمق، وبعد الأمطار عاد الرّجال. كانت عودةً مظفّرةً على إيقاع الطّبول و«يويو»([29]) النّساء. لقد أمسكوا بالرّجُل الشّبح، وقيّدوه إلى نخلة القرية. نظر ميكا حوله محاولاً رؤية مكانها، ولكنّ الظّلّة الكبيرة للخضرة الّتي ترميها شجرة المانغو في أرض المستشفى حجبت نظره، فأغمض عينيه ثانيةً، وراح كلّ شيءٍ يرقص في رأسه. الرّجُل الشّبح الذي تخلّصوا منه عندما اكتشفوا أنّه ليس عصيّاً على الإيذاء، جمجمته كانت من نصيب جدّ ميكا؛ لأنّه الزّعيم الأكبر للمغيما، الذي أهداها بدوره إلى ميكا عندما قتل أوّل فهدٍ.

- «لست خائفاً من البِيض». قال بصوتٍ مرتفعٍ. فكّر بجمجمة ذلك الألمانيّ؛ لقد ألقى بها في النّهر يوم عُمّد.

- «يوم أصبحت عبداً». قال بصوتٍ مرتفعٍ.

وانفجرت موجةٌ صاخبةٌ من الطّرف الآخر من الشّرفة بعد هذه الكلمات، ورأى ميكا الشّرطة يمسكون خواصرهم، وهُم ينظرون نحوه باستظرافٍ. خَطا نحوهم، فتجمّد الضّحك على شفاههم. حدّق فيهم بكراهيةٍ شديدةٍ، ثمّ وبتنهيدةٍ طويلةٍ تلاشت الكراهية. نظر إلى نفسه مشفقاً، ثمّ أحنى رأسه، وقال:

- ما أشدّ بؤسنا!

ثمّ نسيهم. جاء مترجمٌ واستدعاه إلى الدّاخل، ورأى ميكا غوليه المرتبك قليلاً، الذي مدّ له يده متردّداً، ثمّ غيّر رأيه، ومدّ له علبة التّبغ. دائماً تبغ. قدّم واحدةً لميكا، وعندما لم يتحرّك هذا وضع غوليه اللفافة في فمه، وأشعلها.

- «دخّن، ولا تزعج الرّجُل الأبيض». قال المترجم: «تستطيع أن تكوّن رأيك فيه كما تشاء عندما تخرج من هنا. لا تتصرّف بأيّة حماقةٍ، قضيّتك قد ثبتت».

ارتعش فم ميكا. مدّ يده بلهفةٍ إلى فمه، ودفع اللّفافة إلى أنْ أحسّ بها قد ثبتت في الفراغ الذي أحدثه بين قواطعه. امتصّ حنكه، فخرجت سحابةٌ من الدّخان من منخريه وزاويتيْ فمه. تذكّر الغرفة العارية التي قضى فيها ليلته، ثمّ كيلارا والنّار الجميلة في كوخه.

ابتسم له غوليه. سحب اللّفافة من فمه، وردّ بابتسامةٍ. تحدّث الأبيض إلى المترجم لمدّةٍ طويلةٍ، وعندما انتهى قام المترجم بالتّرجمة:

- «تحدّث الأبيض عن أمورٍ عديدةٍ، ولو حاولتُ ترجمتها كلّها لقضينا اللّيل هنا. كلّ ما أستطيع قوله هو أنّك تستطيع العودة إلى بيتك، وسيحصلون لك على وسامٍ آخر. أنت محظوظٌ؛ لأنّ هذا الأبيض قد تعرّف إليك، وفي المستقبل تذكّرْ أن تحمل مصباحاً عندما تأتي إلى المدينة ليلاً. هذا كلّ شيء...».

ابتسم غوليه مرّةً أَخرى لميكا الذي ابتسم ملْء شدقيه، ومدّ غوليه يده، فتردّد ميكا. نظر إلى يديه، ثمّ إلى يديْ الرّجُل الأبيض، وابتسم ابتسامة حَرجٍ.

- «بوتو- بوتو([30])». قال، وهو يرى يديه بلونهما المغرى، والوحل المتجمّد عليهما، ثمّ نظر إلى غوليه: «لا أريد أن أوسخ الرّجُل الأبيض».

- «ماذا يقول؟». وجّه الرّجُل الأبيض سؤاله إلى المترجم.

- «يقول: إنّ يديه موحلتان». ترجم المترجم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

عندما غاب سطح المقرّ عن نظره صار ميكا يتباطأ في مشيته. لقد أصبح عند سطح التّلّ المجاور للمزرعة. أمامه برزت أسْطُح الأكواخ، مثل أرخبيلاتٍ تخرج من بحر الضّباب الهائل الذي سيظلّ يغطّي دوم إلى نهاية الأسبوع.

وأحسّ ميكا بإحساسٍ غريبٍ؛ من دون فرحٍ عميقٍ أحسّ بالسّعادة على الرّغم من أنّ الذّعر الذي خلّفه الحادث كان يجعله يلتفت وراءه، ومع كلّ خطوةٍ يخطوها في اتّجاه القرية. مع ابتعاد المقرّ وراءه، كان الثّقل الغامض الذي يرزح تحته يتلاشى، وعندما أحسّ بنفسه خفيفاً مثل خيطٍ من الدّخان قطف رزمةً من ورق الأترجّة عن جانب الطّريق، ودعكها بين يديه، ثمّ فركها على أسنانه، بصقها، ومطّ شفته السّفلى، وشدّها فوق شفته العليا، ثمّ نفخ. قطف رزمةً أُخرى من الورق، وكرّر العمليّة ذاتها حتّى لم يعُد يشمّ رائحة نَفَسه الصّباحيّ الكريهة. غسل يديه في بركة ماءٍ راكدٍ متجمّدٍ في خندقٍ، ثمّ جفّفهما على وجهه، وبعدها رسم شارة الصّليب، وبدأ صلاة الصّبح.

جاءته الكلمات الأولى بسهولةٍ، وكان يمشي بثباتٍ، وذراعاه على صدره، وعيناه تنظران إلى السّماء إلى أن تعثّر إبهامه بحجرٍ.

قال أحد العابرين: «ستجد وجبةً جيّدةً اليوم. بدايةٌ جميلةٌ في الصّباح». شتم ميكا، وقفز ثلاث قفزات، ثمّ انحنى ليتفحّص إبهامه، وجاء إليه المخلوق الذي كان يتحدّث في الضّباب:

- «مؤلم؟». قال.

- «لقد رأيت ما هو أسوأ». قال ميكا، وهو ينتصب واقفاً، ومدّ العابر يده.

- صباح الخير.

- «الصّباح خيّرٌ». هَمْهَم ميكا، وهو يصافح اليد التي امتدّت إليه.

- «ماذا حدث لك؟». سأل العابر، وكان في صوته قلق.

- «البيض... البيض فقط...». قال ميكا بوجهٍ معبّرٍ.

وهزّ الآخر رأسه:

- عرفت.. عرفت. لا يمكن أن تخطئ بشخصٍ كان يقابل غوليه. عرفت. عرفت.

- «نعم». قال ميكا، وهو يمطّ فمه تعبيراً عن الخيبة.

مدّ يده للعابر الذي صافحها بوقارٍ، ولم يجد ميكا ما يقوله، فمضى، ويداه خلف ظهره، وهو مُنحنٍ، مثل رافعة مصيدة الشّيهم، وراح يمضغ المرارة الّتي يحسّها. حاول متابعة الصّلاة، لكنّه لم يستطع أن يتذكّر أين وصل عندما قوطع، فهزّ كتفيه، وبدأ يمشي بسرعةٍ أكبر.

وفي اليوم التّالي للرّابع عشر من تمّوز/يوليو والعاصفة العنيفة، كانت دوم مهجورةً تماماً، وأبناء البلد الذين اجتمعوا من أنحاء الغابة كافّةً اختفوا كأنّما بفعل السّحر، الذين كانوا يعيشون في القرية، ولم تُقتلع أكواخهم في العاصفة، ظلّوا داخل بيوتهم. لم يكن هناك أحدٌ في الشّوارع إلّا

بعض العمّال الذين أطالوا النّوم بسبب الضّباب، وها هُم الآن يسرعون نحو الحيّ الأوروبيّ، وهُم يتمايلون على الطّريق.

- «هل تحمل أنباءً سيّئةً؟».سأله عابرٌ، وهو ينظر إلى الطّبقة المحمرّة التي شكّلها الوحل الجافّ على ملابس ميكا المدعوكة.

هزّ ميكا رأسه وصرخ: «البيض... البيض فقط».

رَجا الرّجُل أنْ يعذره، وهو يلوّح بيده، ثمّ أسرع في سيره، وهو يتماوج كالبطّة. خطرت له ماما تيتي، ولكنّه طرد الفكرة فوراً، وسارت قدماه الضّخمتان في المعبر القصير المؤدّي إلى بيته مباشرةً، ومن دون أن يمرّ وسط القرية. مشى بخطواتٍ قصيرةٍ؛ لأنّ الطّريق كانت زلقةً بفعل أمطار اللّيل، وعندما أحاطت به الغابة تنهّد، وبدأ يضرب الحشائش والشّجيرات المبلّلة في طريقه، واندفع جرذٌ من دغله يعبر الطّريق، ثمّ اختفى في شُجيرةٍ.

- «الجرذ يركض على الطّريق». إنّه يعرف إلى أين هو ذاهب. قال ميكا بصوتٍ مرتفعٍ. هذه هي الكلمات التّقليديّة التي تعلّم أن يقولها كلّما رأى جرذاً، وذلك كي لا يضلّ طريقه.

- «هل يمكنني القول بأنّ أسلافي لم يحذّروني؟ يوم أمس لم أرَ جرذاً. كيف يمكن لي الوصول إلى دوم من دون رؤية جرذ؟».

واصطدم إبهامه مرّةً أُخرى بجذع شجرةٍ.

قال: «لا بدّ من أنّني سأجد وجبةً ممتازةً اليوم».

وأسرع خُطاه، واندفع داخل الغابة كما يندفع فيها فيلٌ مسرعٌ. كانت الغابة تُصدر أصواتاً من حوله، وكان الطّريق قد امّحى تقريباً في العاصفة. هناك أشجارٌ واقعةٌ على الأرض، وقد سحقت الشّجيرات الصّغيرة، وتحوّلت إلى حواجز في طريق ميكا، وتعلّقت آلاف الأيدي الورقيّة بملابسه فبلّلتها بالماء، وراح ميكا يدفع الأعشاب والأغصان ويقفز من جذعٍ إلى جذعٍ، أو ينسلّ مثل الأفعى تحت شجرةٍ مائلةٍ لم تصل إلى الأرض تماماً، ووصل إلى فسحةٍ.

ارتاح على الأعشاب، وبعد قليلٍ قطف ورقتين من شجرةٍ خاصّةٍ ليبعد عن نفسه النّحس، وسقطت على رأسه مصعة طائر.

- «أيّ حظّ!». قال ميكا، وهو يمرّ بيده على رأسه ليزيل السّماد السّماويّ، واحتكّ به جناحا حمامةٍ تقفز من شجرةٍ إلى أُخرى، ثمّ حطّت على جذعٍ كبيرٍ لشجرة منغروف أمامه.

- «يا زميل العابر». قال ميكا مخاطباً الطّائر كما لو أنّه إنسانٌ. «أيّة أخبارٍ طيّبةٍ تحمل إليّ؟». وطار الطّائر محلّقاً في الجوّ فوق رأس ميكا، ثمّ سلّم عليه. هذه المرّة كاد ميكا يقلق، ولكنْ بما أنّ السّعد يهطل على رأسه فإنّه قرّر أن يُبعد القلق.

- «حظّاً جميلاً!». قال.

انبعثت هذه المظاهر كلّها مرّةً أُخرى في ذهنه، مثل موجةٍ هائلةٍ، ومسحت منه التّعاليم والطّقوس المسيحيّة كلّها.

امتلأ الجوّ برائحة الشّجر الميت، والجذور المختمرة، والتّراب الرّطب، وريح الغابة في الصّباح

بعد المطر. هذه الرّوائح كلّها، المنعشة مثل أعشاب الماء، أثارت ذكريات أيّام الصّيد والشّيهم الذي يُستخرج بإشعال النّار في باب وكْرِه، والحربة المسدّدة في خاصرة الظّبي، والخنزير المتوحّش المندفع إلى وِجاره، والنّار التي توقد بالسّعف الجافّ المقطوف منذ أحد السّعف([31]) لضمان الموسم الجديد، الحياة في الأرض الإفريقيّة كلّها التي افتقدها ميكا منذ أن اسْتُدْعِيَ من أجل وسام الصّداقة. كان يلحظ الآن الآثار التي خلّفتها الحيوانات على الأعشاب، وسرّه أن يعرف بوفرة الظّباء في هذه المنطقة من الغابة، التي سمّاها فوراً: «غابة العودة».

سمع صياح ديكٍ، فقفز فوق ما تبقّى من جذوع الأشجار حتّى وجد نفسه في بستان الكاكاو الذي يملكه، والواقع وراء الكوخ. تأثّر عندما أحسّ بقدميه تخطوان على بساط الأوراق الميتة الرّطبة. لقد خفّفت الأوراق من وقع خُطاه، ولكنّ صوتها ظلّ كافياً لإقلاق الدّجاجات التي كانت تنبش في المزبلة، وعند اقترابه تفرّقت بعض العنزات، وقوقَت الدّجاجات، ونبح كلبٌ، ثمّ جاء إليه بمرحٍ.

- «مندومو، مندومو». هتف ميكا، وهو يطقطق أصابعه، وتوقّف الكلب. لهث أمامه قليلاً، ثمّ اندفع نحو القرية ينبح. كان الكلب مُلكاً لطبّاخ القسّ، وكان هذا قد تخلّى عن عمله، وعاد إلى القرية، ثمّ صار يعتمد في تأمين عيشه على كرم الفلاّحين.

- «لم يعد هذا الحيوان يعرفني». قال ميكا متذمّراً: «فلأره مرّةً أُخرى في كوخنا...».

دار ميكا حول الشّجيرة – المرحاض، وابتسم عندما رأى أنّ الخنزيرة التي كانت تأتي إلى موعده كلّ صباحٍ ما تزال تنتظر. يا للمسكينة! تظاهر أنّه يقرفص كعادته، وتهادت الخنزيرة نحوه، وقفت أمام ميكا، ثمّ مضت لتنتظر على الطّريق، ووقف ميكا حائراً، أين رأى هذه الطّلعة من قبل؟ وشهق ضاحكاً، فكاد ينزلق، وقال لنفسه: «العالم آتٍ فعلاً من بين يديّ الله».

مرّر يده على جبينه كما كان يفعل كلّما خانته ذاكرته، وخَطا نحو الخنزيرة التي قبعت بعيداً، وبدأ ميكا يضحك من جديدٍ. «فهمت الآن». قال لاهثاً: «لماذا لم أفكّر في ذلك من قبل؟ إنّها طلعة زعيم البِيض. فهمت الآن». قال لاهثاً: «لماذا لم أفكّر بذلك من قبل؟ إنّها طلعة زعيم البِيض. العالم ينزل من بين يديّ الله». كرّر قوله، وأضاف: «ما من أحدٍ يستطيع أنْ يُنكر أنّ طلعة زعيم البِيض قد صنعها الصّانع نفسه الذي صنع طلعة الخنزيرة».

مضى ميكا، وهو يضحك ضحكةً مكتومةً، وتوجّه نحو الكوخ. كوخه وقلّةٌ أُخرى من الأكواخ صمدت أمام العاصفة. بدا كأنّ مجموعةً من البلدوزرات قد مرّت على القرية، فتحوّلت إلى حقلٍ مكشوفٍ مرصّع بأكوامٍ من التّراب، وانهمك الفلاّحون بمعازقهم، ورفوشهم، وسواطيرهم، ينبشون الرّكام لإنقاذ أثاث بيوتهم.

وكان الرّجال، والنّساء، والأطفال ينقّبون في أكوام الوحل التي كانت حتّى الأمس بيوتاً لهم: مدقّات خشبيّة، وسطول دهانٍ، ودلاءٌ، وجذوعُ أشجارٍ عتيقة مسودّة من الدّخان، وناموسيّات عليها دماء البعوض، وقد قرضها النّمل الأبيض، وتماثيلُ قديمةٌ لقدّيسين مسودّةٌ بالسّخام، وحجارةٌ لدقّ الفول، وأرجُلُ أسِرّةٍ مصنوعةٌ من النّخيل، وتنكاتٌ عتيقةٌ للنّفط، وتنكاتٌ للكيروسين، وأحذيةٌ قديمةٌ، ومجلاّتٌ قديمةٌ، وأنواع الألبسة كافّة، وصُررٌ من الفول، وصُررُ الملح، هذا الفقر المصنّف كلّه، مجمّعٌ في أكوامٍ صغيرةٍ، كان منثوراً في السّاحة، وتحوّلت السّاحة ذاتها إلى مجمعٍ لمعظم دواجن القرية التي كانت تنقّب الأرض بحيويّةٍ، وتزدرد

الصّراصير، وأم أربع وأربعين، والعناكب التي كانت تخرج من قطع الأثاث.

ودخل ميكا السّاحةَ.

- «ها هو ميكا». صاح أحدهم.

- «أين؟». سأل آخر.

- ها هو.

- «ها أنا ذا». هتف ميكا.

ومرّت في الحشد رعشةٌ عندما سمعوا هذه الكلمات. ألقى الرّجال بسواطيرهم، وعندما فكّوا ملابسهم المربوطة حول أواسطهم مرّوا بأيديهم على شفاههم دهشةً.

ركض إليه مغوندو ابن أخته. لم تكن هناك حاجةٌ لسؤال ميكا عمّا حدث له، فهو الآن بين أهله، وكان وجهه مكتسياً بذلك التّعبير الدّراميّ الذي اعتاد استعماله عند السّهر على الموتى، وكان منظره أليفاً بملابسه المتّسخة. كان يمكن أن يخطئ المرء، ويظنّه من أولئك المتسوّلين الّذين كان الأب فاندر ماير يطردهم دائماً من كنيسته.

وأطلق مغوندو صرخةً رهيبةً، ثمّ أمسك بيد ميكا:

- «ماذا حدث؟ ماذا حدث؟». وراح القرويّون يتساءلون، وهُم يتجمّعون حوله.

- «البِيض. البِيض فقط...». قال ميكا.

نفخ ميكا بهذه الكلمات مع تبويزةٍ من شفتيه قالت ما أراد أن يقوله كلّه، وصار ميكا فوراً محطّ اهتمامٍ خاصٍّ. مرّر أحدهم رأسه بين ساقي زوج كيلارا ليحمله على كتفيه القويّتين على الرّغم من أنّه على بُعد خطواتٍ من الكوخ.

- «شكراً لك يا بومو». قال ميكا بصوتٍ واهنٍ: «ولكنّني جرجرت نفسي إلى هنا وأستطيع أن أزحف إلى سريري...».

وتشنّج، فساعدته الأيدي على المشي.

- «لقد انتهيتُ». قال، وهو ينشج: «لقد أوشك هؤلاء البِيض على قتلي، وحتّى لو متُّ بعد مئة عامٍ، فأنا أعرف أنّني متُّ في سجن غوليه».

- «في سجن غوليه؟». قال الحشد بصوتٍ واحدٍ.

- «في سجن غوليه». كرّر ميكا بصوتٍ مرتعشٍ: «على حافّة القبر. في البرد. لقد كدت أموت من البرد والبعوض. تعرفون أنّ لديّ...»، وبدأ يسعل: «صدراً...»، وسعل من جديدٍ: «ضعيفاً».

- «يا لكيلارا المسكينة! يا لكيلارا المسكينة». وبدأت أماليا تزعق. تمرّغت على الأرض، وربطت منديلها على خصرها، ثمّ وبيديها المتصالبتين على رأسها خرجت راكضةً من الكوخ لتبلغ كيلارا التي لم تكن قد رجعت من النّهر.

وتلاشت صرخاتها وراء الكوخ.

- «ذهب انجامبا ليبحث عنك». قال مغوندو، وهو يضع خاله على السّرير: «وقد اتّفقنا أنّه إنْ لم يعد مع دقّة النّاقوس فسنذهب وراءه».

- «لم أره». قال ميكا بصوتٍ واهنٍ.

- «لقد سلك الطّريق العام». قال أحدهم.

وكرّرها شخصٌ آخر: «سلك الطّريق العام». ومضت امرأةٌ لإحضار بعض الخشب من تحت العلاّقة الّتي وضعت عندها كيلارا بعض الأغراض، ثمّ عادت لتشعل النّار لميكا.

- «أنا بردان.. بردان..». قال، وهو يئنّ، وأسنانه تصطكّ: «لقد عدتُ في الحال من الطّريق التي تؤدّي إلى الأشباح».([32])

لم يبق هناك متّسعٌ لجلوس أحدٍ في بيت ميكا. عبّأه الزّوّار وأبناء القرية. كان الرّجال يجلسون على الأرض وملابسهم مرفوعةٌ، وهُم متجمّعون حول رأس السّرير، وكانت النّسوة يبكين بغزارةٍ، وبين الحين والحين تستنجد إحداهنّ بأحد القدّيسين.

- «ميكا ليس ميتاً. ليس ميتاً». صاح نتي، وهو يقف بغتةً، وقد نسي إنزال ثوبه لستر ردفيه العاريتين: «ميكا ليس ميتاً». تابع القول، وهو يحدّق حوله مشدوهاً.

وأخيراً أنزل ثوبه، وتصاعدت هَمْهمةٌ من الحَشد، فرفع نتي صوته أعلى: «هذه التّعابير التي على وجوهكم جميعها يمكن أن تُنزِل على رؤوسنا كارثةً حقيقيةً. لا تمارسوا سحركم هنا!».

- «نتي على حقّ». قال مغوندو، ودفع الموضوع أكثر: «لقد أعادوه إلينا حيّاً، فلْنحمد الله».

- «أغلقْ فمك. أغلقْ فمك النّتن». جأر ميكا، وهو يستند إلى مرفقه: «انظروا إليّ كلّكم. ليس فيكم ما يدلّ على أنّكم رجّال. البِيض انتزعوا الرّجولة وقتلوني، وماذا فعلتم؟» .والتفت إلى مغوندو: «لقد بدأت تتحدّث عن الله. منذ أن بدأت ترشّ نفسك بالماء المقدّس لم تختفِ من وجهك التّجاعيد، ثمّ ها هو يأتي ويحدّثني عن الله».

- «ميكا على حقّ». قال أحدهم: «الله نفسه قال لنا أن ننقذ أجسادنا، وهو يتولّى الباقي».

- «يساعدنا على تولّي الباقي». صحّح له أحدهم.

- «مَن هذا الذي يتحدّث مثل أغناطيوس أوبيبي؟». سأل ميكا، وهو يستند من جديد على مرفقه. هو نفسه. قال أغناطيوس: «بورك يسوع المسيح».

- «فلْينكحوك بعيداً من هنا! هيّا. انقلع من كوخي!». انفجر ميكا ناهضاً: «لا تبدو اليوم كما عهدتك». قال أغناطيوس لائماً: «سآتي وأراك بعد أن تجد وقتاً للرّاحة». وخرج بينما ساد الذّعر في الكوخ. لم يفهموا ما الذي يمكن أن يكون قد حدث لميكا، ولكن بالتّأكيد لم تعد تستطيع أن تقول إنّه الآن كما عهدته من قبل، وكيف يمكن لمسيحيٍّ طيّبٍ مثله ألّا يريد سماع حديثٍ عن الرّبّ؟

وهمس أحدهم: «لعلّ نزعات الموت قد بدأت».

- «ربّما». قال آخر.

- كما أنّ روح الشّرّ قد تكون مسيطرةً على الكوخ، فهذا كثيراً ما حدث في لحظات احتضار المسيحيّين الطّيّبين.

وقُوطع هذا الحديث بعويلٍ كان من الممكن سماعه يقترب من وراء الكوخ، وكانت تلك أماليا قادمةً مع كيلارا، وكانتا ترنّمان حزنهما، فصمت الجميع لسماعهما:

«يااا رب

أمواجُ الحزن

قد شكّلت بحاراً

من دموعي.

بلاياي

وصرخاتي

وصلواتي

قد أتلفت صوتي

يااا رب

إيماني باقٍ

فهل هذه خطيئتي؟

يااا رب

انتزعتَ منّي أولادي

فشكرتك وحمدتك على الرّغم من قسوة الأمر

يااا رب

لستُ إلّا

سوداء مسكينة

يااا رب

امنحني بريئي العجوز

أصلتي([33]) السوداء العجوز

يااا رب

إيماني باقٍ

فهل هذه خطيئتي؟».

وردّت عليها صرخاتٌ أُخرى من داخل الكوخ، وبدأ النّحيب الرّتيب يتحوّل إلى ترنيمةٍ جماعيّةٍ، وراحت الأرض تهتزّ تحت الأرداف العارية للضّيوف. كان الجميع يعولون، ولا يتوقّفون إلّا للبصاق بصوتٍ مرتفعٍ.

ودخلت كيلارا الكوخ، وأماليا تسندها، وأفسحَ بعض الزّائرين لها كي تتمرّغ على الأرض، فلم تتردّد في ذلك. بلمح البصر كانت على الأرض، وراحت تتدحرج من العمود حتّى رأس سرير ميكا، ومن هناك إلى طرف الكوخ حيث تنام الدّجاجات، وراحت تلوّح بيديها وساقيها، وهي تزحف، وتركع، وتستلقي من جديدٍ، وتلهث، وتبصق، وتمزّق ثوبها، وتكشف عن جسدها، ثمّ تزعق بأعلى ما تستطيع، وتنهض على قدميها لتعود إلى الارتماء على الأرض من جديدٍ، وبعنفٍ مماثلٍ، وحذت أماليا حذوها، ففعلت النّسوة الأُخريات مثلهما، وراح الرّجال يتابعون المشهد بعيونٍ لامعةٍ، وهُم يأمرون بضعفٍ أن يسود الصّمت، وتعلّقت العيون كلّها بزوج إبسومبا الّتي تمزّق عنها ثوبها تماماً، وهي تتدحرج على الأرض، وتضرب رجليها بعنفٍ في الهواء.

وكان ميكا مستلقياً على ظهره مثل الجثّة، يداه مطويّتان على صدره، وهو يحدّق إلى قصب الرافية في السّقف، وعندما كانت كيلارا تتدحرج نحو السّرير كان يغمض عينيه، ثمّ يعود ليفتحهما، وهو يسمع عويلها قرب العمود، ولكنْ حين كان يأتي دور زوج إيسومبا الفتيّة في الدّحرجة نحو السّرير كان ميكا يلتفت بسرعةٍ، ويلقي عليها نظرةً سريعةً بطرف عينه، وانتهى العرض عندما اضطجعت النّسوة كلهنّ، واحدةً إلى جانب الأُخرى، وقد أُرهِقْن تماماً، قرب النّار مثل مجموعةٍ من التّماسيح على ضفّة نهر.

وبين حينٍ وآخر يصدر أنينٌ عن كيلارا، وصوتها يتابع غناءه، وبعد أن شبّهته بعمالقة الطّبيعة كلّهم سألت عمّن سيجلب لها الشّياهم بعد اليوم إلى البيت.

ونهض نتي من جديد على الرّغم من أنّ أحداً لم يكن يبكي الآن، وقال: أطلب إليكم التزام الهدوء. قال ذلك وهو ينزل ثوبه على وسطه، وكان قد علق بين ردفيه: «لقد بكينا كثيراً، وسنستمرّ في البكاء، ولكنْ في قلوبنا كما هو حالنا في حياتنا».

ومن دون خجلٍ فكّ سرواله، ثمّ ربطه من جديدٍ، ثمّ مدّ يده نحو ميكا، وهو يتابع كلامه:

- «عندما بكت كيلارا يوم أمس لأنّ ولداً، ولداً تافهاً قال: إنّ ميكا قد باع أبناءنا لقاء وسامٍ قلت لها: ألّا تلقي بالاً إلى كلامٍ كهذا، ولكنّني أسألكم، أنتم الذين هنا جميعكم»، وتطلّع حوله وهو يطلق إشارة غامضة «..أنتم الّذين هنا جميعكم، هل هناك شيءٌ تملكونه بالمعنى الذي كان أسلافنا يفهمون فيه هذه الكلمة، ومنذ أن جاء الرّجُل الأبيض إلى هذه البلاد؟».

- «لا، لا». أجاب الجميع.

فتابع نتي: «ما الذي يحدث؟ هل الرّجُل الأبيض أخ هنا في هذه الجماعة؟».

- «لا». قال الجميع بصوتٍ واحدٍ أكثر ارتفاعاً: «لا».

وجلس نتي، فقال إيسومبا، وهو ينهض واقفاً: «إذا كان البيض يظنّون بأنّه ليس بيننا من يمكن عَدّهُ رجُل حكمةٍ ناضجةٍ، فإنّني أقول: إنّ كلمات نتي هي كلمات رجُلٍ ذي حكمةٍ ناضجةٍ، وإنّ كلماته تزن أطناناً».

- «هذا بالضّبط ما كنت أريد أن أقوله». قال بومو مقاطعاً: «الأمور هي كما هي عليه..».

- «...وهناك شخصٌ يتحمّل المسؤوليّة». ردّدت الجماعة كلّها بصوتٍ واحدٍ.

- «والأمور تجري كما يجب أن تجري». قال إيسومبا: «آه! يا لأسلافنا! لقد تخلّوا عنّا، ومنذ أن تركونا بأيّة لا مبالاة عاملونا. إنّ مآسينا لا تزعجهم في قبورهم».

- «بأيّة لا مبالاة!». ردّدت الجماعة بصوتٍ واحدٍ.

- «لم أعد أفهم إلى أين يمضي بنا هؤلاء البِيض». تابع إيسومبا: «ليس لشيءٍ نحترمه أيّة أهميّةٍ بالنّسبة إليهم، عاداتنا، حكاياتنا، طبّنا، حكماؤنا... هذا كلّه ليس إلّا شيئاً له علاقة بخدمهم، وها هُم اليوم ينصبون لنا المصائد كالجرذان، فإلى أين هم ماضون؟».

- «أيّ جُبن!» قال بومو ملتقطاً الحديث، ولم تكن لديه الجرأة للوقوف فظلّ منحنياً. أقول مرّةً أُخرى: «أيّ جُبنٍ أن تستدرج النّاس إلى السّجن من خلال وعدهم بوسامٍ. أنا أعتقد أنّ هذا شبيهٌ بطعن إنسانٍ وراء أذنه...».

- «ولكن فيم هذا كلّه؟». جأر نتي: «تتحدّثون عن البِيض كأنّهم من أهل القرية المجاورة! هل يُوجد هنا من له وجه أحمر وغير مختون؟».

- «لا أحد! لا أحد». ردّدت الجماعة.

- «حسنٌ إذن، تَعْجَبون ممّا يفعله بنا هؤلاء البِيض كأنّما هُم مثلنا».

- «الآن، هذا اسمه كلام. يتكلّم مثل الحكماء». قال الجميع بصوتٍ واحدٍ: «الشمبانزي ليس أخاً للغوريلا».

- «يا أسيادنا». قال مغوندو بخوفٍ، وعيناه مطرقتان، وهو مرتبكٌ بعقدة ثوبه على ردفيه: «أعرف أنّه لا يحقّ لي الكلام بينكم، ولكنّني منذ قليل أكلتُ أحشاء غنمة».(34)

- «ومن سمح له بأكلها؟». قال أحدهم متذمّراً.

- «نعم. هذا مُشينٌ، مُشين». قالت الجماعة محتجّةً.

- «هل السّلحفاة الصّغيرة عجوزٌ لمجرّد أنها مجعّدة؟ من سمح لك أن تأكل أحشاء الغنمة؟». هكذا وُجِّهَ السّؤال إلى مغوندو.

وجاءت التّعليقات من كلّ صوبٍ. ما الذي سيكون عليه مصير القرية إذا كان حتّى الشّبّان، الذين كانوا حتّى يوم أمس يتراكضون عُراةً، يُسمح لهم بأكل أحشاء الغنمة؟ ومن دون إذن العشيرة، وأصرّوا على معرفة اسم صاحب الغنمة التي أكل مغوندو أحشاءها، على الرّغم من أنّ كلّاً منهم كان يظنّ أنّه ميكا. إذن، متى أُكلت الغنمة؟ وثارت الكبرياء. كان في القرية أناسٌ يلعبون دور الرّجُل الأبيض، وإنّه لأمرٌ مشينٌ أن تُؤكل غنمةٌ كاملةٌ في السّرّ، وأن تدع الأولاد يأكلون أحشاءها من دون عِلْم القرية.

- «آه للمغيما». هدرَ نتي صائحاً.

- «إيييييي». ردّد الجميع.

- «ما هذا؟ أسألكم ما الذي حدث لكم كي تتحدّثوا جميعاً كأنّ أدباركم قد انفتحت فيها ثغرات؟». هذه الكلمات فرضت الصّمت.

- «نحن هنا كي ننفجر غيظاً. أقول ننفجر غيظاً؛ لأنّ المختونين هذه المرّة قد تمادوا».

- «ألستم كلكّم ترزحون تحت وطأة البؤس الذي أوقعه بنا البِيض؟».

- «نرزح. نرزح. نرزح». ردّد الآخرون على نحوٍ إيقاعي.

- «وإذا كان مغوندو قد أكل أحشاء غنمةٍ من دون موافقتكم، فعليه أن يجلب كبشاً من قرية أعمامه، وهُم لا يستطيعون أن يردّوا طلبه».

والتفت نحو المُتّهم.

- أيّ شَرِهٍ هذا؟

وردّ مغوندو بإهانةٍ صامتةٍ، وهو يُطرق بنظره إلى قدم بول نتي المتورّمة، وتابع نتي إهانته على الرّغم من أنّ هذا يُعدّ سوء استعمالٍ لحقوقه كآدميّ.([35])

- «الجميع يعرفون أنّ التّجاعيد امتياز الشّيخوخة، ولكنّ تجاعيدك ليست أكثر من نتيجة لشراهتك في الأكل».

- «صحيح». هتف الحشد موافقاً.

- «لا شيء إلاّ شراهتك». استمرّ نتي مؤكّداً: «وأنت تملك من الوقاحة ما يجعلك تأتي وتعترف بها هنا! ستلتزم، الآن، هنا، وأمام الجميع بأنّك ستجلب كبشاً من عند أعمامك كي يصبح في إمكاننا أن نبصق على وجهك».([36])

ووعد مغوندو، ثمّ خرج بعد أن نظر مرّةً أُخرى إلى قدميْ نتي المتورّمتين، وتنهّد ميكا، وردّت عليه زوجُه بتنهيدةٍ، وتحرّكت النّدّابات إلّا أنّهنّ كنّ قد أُنهكن، فاكتفين بحشرجةٍ من الحَنجرة، وهُنّ يهززن رؤوسهنّ.

ونهض نتي من جديدٍ، وبدأ القول: «لقد بكينا بما فيه الكفاية، وحتّى لو كانت الدّموع لا تفيد الموتى فإنّ الدّموع الّتي ذرفناها اليوم ليست عديمة الفائدة».

- «نتي مُحقّ». قال أحدهم.

- أقول: إنّها لم تكن عديمة الفائدة؛ لأنّ ما حدث للآدميّ ميكا قد حدث لنا كلّنا من خلاله.

- «كلّنا. كلّنا». وانتقلت الكلمات من فمٍ إلى فمٍ.

- «من سيمشي مرّةً أُخرى إلى المصيدة بعينين مفتوحتين؟». سأل نتي.

- «نحن لسنا شياهم». ردّ الجميع.

وقفز إيسومبا بغتةً، ثمّ نزل على يديه، ورفع رجليه في الجوّ، وراح يُمرجح جسده، ويحرّك قدميه، وأعطى التّصفيق إيقاعاً لهذه الرّقصة التي اسمها: «رقصة الحرباء»، ثمّ مال بجسده إلى الوراء، وارتدّ مثل كرة المطّاط، ثمّ نزل على قدميه.

- «آه. فعلها». «هذا». «يا للشّباب!... يا للمهارة!». «لا تستطيع أن ترى شيئاً كهذا كلّ يوم». «هو ووو ى ى يااااا». عبّر كلٌّ عن إعجابه بطريقته، حتّى ميكا الذي يستلقي الآن على بطنه، وقد نسي كم هو مريض، وبدأ الرّاقص يتكلّم:

- هناك أنواعٌ عديدةٌ من الدّموع...

- «بعدد الطّيور التي صنعها الرّبّ». أنهى الجميع له عبارته.

- «أردت أن أبكي بطريقتي». تابع إيسومبا بصوتٍ مرتعشٍ.

وبدأ يؤرجح جسده من جديدٍ بينما راحت الجماعة تغنّي أغنيةً إيقاعيّةً، وتصفّق له: «الحرباء تمشي على قائمتين. للحرباء قائمتان».

وراح إيسومبا يتأرجح مثل شعلةٍ راجفةٍ، وهو يغنّي بلازمةٍ يقلّد فيها الأصوات:([37]) «هر رررر» وعندما توقّف حلّ شخصٌ آخرُ مكانه.

صاح: «طبلٌ يأتي من شُجيرة القطن».

وردّت الجماعة بصوتٍ مؤثّرٍ: «فيما نحن نتحدّث دعنا نشرب».

- «ها قد بدأنا نقول شيئاً مثيراً». قال أحدهم.

- «هذه أوّل كلمات النّهار». قال آخر: «دع الأبيض يأتي ويمنعني من سماعها».

- «فليتجرّأ». قال آخر.

وبدأ الجميع يضحكون.

- «هل هناك أيّ خمرٍ في هذا الكوخ؟» سأل بومو وسط الصّمت الذي شمل الجميع بغتةً.

- «لا». قالت كيلارا: «القسّ...».

ولم يسمح لها أن تُكمل.

- «القسّ، القسّ، دائماً القسّ». احتجّت الجماعة. كان يُسمّى بالبخيل، الذي يشرب وحده، ولم يسبق له أن دعا أحداً سواء كان يشرب في الكنيسة أم في بيته. «فلْيذهب من يجلب بعض خمر البلح». أمر نتي.

- نتي معه حقّ. معه حقّ.

ونظرت العيون كلّها إلى السّرير الذي كان ميكا ممدّداً عليه. رفع ذراعه نحو الجمع المُحتشد، ثمّ أشار إلى ما تحت سريره، ونزل نتي تحت السّرير مثل كلبٍ، وسحب سلة قصبٍ صغيرةً إلى ميكا، وأبعدها ميكا عنه بقفا يده، وبصوتٍ واهنٍ قال له أن يأخذ منها ما يريد، ودفع نتي يده بلهفةٍ في السّلّة، وهو يقطف حاجبيه ويبتسم. أخرج ورقةً بألف فرنك، وبعض القطع الصّغيرة خشخشها بيده.

- لديّ هنا ما يكفي لشراء دمجانتين. من يستطيع أن يركض بسرعةٍ إلى الطّرف الآخر من النّهر؟

- «أظنّ أنّ في الإمكان جلب خمرٍ جيّدٍ من...».

- «من عند زوجٍ سائق بيبينيس». قال نوا الذي لم يفتح فمه بعد.

وقف ومدّ يده نحو نتي الذي ازداد تقطيب حاجبيه: «أنت ستجلب الخمر؟» سأله بشيءٍ من الفتور.

- ....

- طيّب. ها هي ورقة بألف فرنك. قبل خمس سنوات كان بوسعك شراء زوجٍ بمبلغٍ كهذا...

وبدأ يعدّ القطع النقديّة الصّغيرة في يد نوا: «واحد، اثنان، ثلاثة... ستّون فرنكاً. ترون؟ أعطيت نوا ألفاً وستّين فرنكاً».

وخرج نوا من دون أن ينظر إلى بول، وهو يعلك جوزة الكولا الدّائمة في فمه، والتقط الآخرون خيوط الحديث، وهُم ينتظرون الخمرة الجيّدة التي ذهب نوا لجلبها من وراء النّهر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

وأخيراً ظهر سقف المقرّ تحت الضّباب، وحين وصل إلى رأس التّلّة التي تشكّل حدّ القرية، بدأ انجامبا يبطئ من خطواته، ويسأل نفسه إلى أين هو ذاهب.

هَمْهم لنفسه: «لا بدّ من أنّني مجنونٌ. كيف وصلت حتّى هنا من دون دعوةٍ من الحاكم؟ وإضافةً إلى ذلك إذا كان ميكا ما يزال نائماً عند الحاكم، فإنّه لم يحِنْ بعدُ وقت إيقاظه».

قال انجامبا هذه الكلمات لنفسه من دون أن يصدّقها، وهو يقضي حاجةً داهمته لدى وصوله أعلى التّلّة. أعاد ربطة تكته، وسأل نفسه من جديدٍ ما الّذي يفعله هنا، وهو الفلاّح القادم من الغابة في أواسط المركز الإداريّ في هذه السّاعة المبكّرة من الصّباح. صحيحٌ أنّه وعد كيلارا بإرجاع زوجها حتّى لو كان في فم الأسد، ولكنْ تلك كلماتٌ يقولها المرء من دون تفكير. لقد نجحت كيلارا هذا الصّباح في إثارة نخوته، ودفعه إلى القيام بتلك المغامرة الخَطِرة التي قد تنتهي به إلى السّجن. طبعاً هو يغامر الآن بدخول السّجن، لكنّ الحاكم لن يتردّد لحظةً واحدةً في زجّ ابن بلدٍ في السّجن رآه يتسكّع في المنطقة الأوروبّيّة من دون أن يكون مدعوّاً إلى أيّ مكانٍ فيها، ولكن كيف يدبّر الأمر وكيلارا تذكّره بمآثر والدهما، وتأسف لأنّ أخاها انجامبا لا يستطيع الوقوف أمام واحدٍ من غير المختونين من دون أن يبول في ثيابه؟ لقد احتجّ انجامبا، ثمّ قطع وعده مُقسماً بوالده، وبالثّالوث المقدّس، بأن يذهب ويسأل الحاكم عمّا فعله بميكا الّذي منحه وساماً في الحال.

والآن، وفيما هو أمام مكتب الحاكم، بدأ انجامبا يدرك أيّة حماقةٍ كان التّعهد كلّه. أناس مثله التقطوا من أعلى شرفة المقرّ من دون أن يزعج أحدٌ نفسه بالسّؤال عن سبب مجيئهم، وهُم في السّجن إلى حيث لا يعلم أحد. ما من واحدٍ من أبناء البلد يتجرّأ على الوصول إلى قمة التّلّة الّتي تحاذي حدود القرية.

- «إنّك لا تذهب بنفسك إلى المصيدة، وعيناك مفتوحتان». قال انجامبا بصوتٍ مرتفعٍ، وهو يعود أدراجه: «لقد اعتاد أسلافنا على القول: حين يبدأ قلبك بالخفقان، وأنت تصل إلى نهاية رحلتك، فعُد أدراجك».

وهكذا بدأ انجامبا ينزل التّلّة. في السّفح كانت تبدو له الأكواخ. ظلّ يمشي حتّى لم يعد يستطيع رؤية التّلّة، وعندها جلس على حجرٍ حدوديٍّ. رفع ثيابه فوقه، وكسر جوزة كولا، وانتظر أن يمرّ به أحدٌ، وعندما بدأ يفقد الأملَ ظهر له شبحٌ في الضّباب وكان يسير في اتّجاه المنطقة الأوروبيّة.

- «أيّها العابر». قال انجامبا عندما وصل الشّبح إلى حيث يصل الصّوت: «صُبّحت بالخير».

- «صُبّحت بالخير يا صاحب». قال الرّجل، وكان متلفّعاً ببطّانيّة صوفٍ، ثمّ اتجه صوب انجامبا.

قدّم له انجامبا قسماً من الجوزة فدفعها الآخر في فمه وخرجت من فمه، عندها، دفعه من البخار.

- «سيذهب البِيض بنا بعيداً». قال انجامبا: «في هذا الوقت يجب أن أكون أمام النّار، فإنّني

أرتعش من البرد جالساً على حجر الحدود، والسّبب هو أنّني لست نفسي».

- «نعم، أنت لست نفسك». أكمل الغريب، وهو يشدّ أطراف بطّانيّته حوله: «كان نحيلاً كالحرباء، ولم يكن هناك داعٍ لطرح الأسئلة عليه فقد كان واضحاً أنّه مريض».

- «كلّ شيء يتغيّر في عالم البِيض هذا». تابع انجامبا: «صار النّاس غير مرئيّين مثل الأشباح، وصاروا يختفون كالنّقود. الرّجل الذي أبحث عنه زوج أختي. رجُلٌ عاقلٌ وآدميٌّ... رجُلٌ حقيقيٌّ، فهل رأيت أيّها الغريب آدميّاً يلبس وساماً؟».

- «لا وأمّي». قال الغريب: «لم أرَ الرّجُل الذي تسأل عنه، ولكنّني سأعرفه من الوسام إن رأيته، وسأقول له إنّ آدميّاً آخر ينتظره جالساً على صوةٍ في الطّريق».

- «على جانب الطّريق العام». أضاف انجامبا: «على جانب الطّريق العام» ردّد الغريب وودّعه.

- «هذه هي المسألة». قال انجامبا، وقد عادت إليه الحياة: «هذه هي المسألة»، وظلّ يردّدها إلى أن اختفى الغريب عن ناظريه.

تحدّث بالأمر ذاته إلى شخصٍ، أو اثنين ممّن غامروا بالسّير في الضّباب على الطّريق العام نحو المركز الأوروبّيّ، وعندما أنهى انجامبا جوزات الكولا الّتي استطاعت إبقاءه على الحجر، نهض وبدأ طريق العودة.

لقد قرّر ما سيقوله لكيلارا، لم يكن الأمر صعباً، كان من السّهل تخمين مكان وجود رجُلٍ آدميٍّ في منزله كان قد أُعطى وساماً ليلة البارحة، ودُعي إلى المقرّ، فميكا أحد الإفريقيّين المميّزين بالأكل والشّرب مع البِيض، فإن لم يكن قد عاد إلى القرية، فهذا لأنّ الحاكم قد أخّره حتّى اللّيل، ولذا فإنّه لا داعي للقلق أبداً.

واستعاد انجامبا رشاقة خطواته، وهو غارقٌ في هذه الأفكار، وعندما وصل إلى القرية دَهَشه ألّا يجد أحداً وسط الرّكام، وبدا أنّ هناك حياة تدبّ في كوخ ميكا، وأسرع انجامبا نحوه خائفاً من أن يفوته نصيبه من المأدبة التي لابدّ من أنّها مُقامةٌ هناك. وقف بالباب، وأطلقت كيلارا صرخةً حادّةً، فأحسّ بمعدته تتقطّع، وبدأت النّسوة بالبكاء، فأحسّ بساقيه كالماء.

- «ماذا جرى؟ ماذا جرى؟». قال مرّتين متتاليتين، وهو يحاول أن يبعد القلق الذي استحوذ عليه، ولم يأته جوابٌ سوى أصوات البكاء، فاندفع إلى داخل الكوخ، ومشى عدّة خطواتٍ، ثمّ توجّه إلى السّرير حيث كان ميكا مستلقياً.

- «لقد قتله البِيض تقريباً». أوضح بول نتي الذي نهض مرّةً أُخرى من دون أن يغطّي مؤخّرته: «وقد جئنا كلّنا لنبكي معه».

وجلس انجامبا على حافّة سرير ميكا، ثمّ تنهّد.

- «ما الذي حدث؟». سأل انجامبا، وقد اختلط صوته بالبكاء: «لقد وصلتُ حتّى المقرّ. نعم حتّى المقرّ كي أعرف ماذا حدث لك».

وأثار هذا هرجاً بين المحتشدين، وتركّزت العيون على انجامبا، فنهض واقفاً وسط الكوخ، وقال: «ها أنا ذا عائدٌ في الحال من مكتب الحاكم، من المكان الذي لا يجرؤ أحدٌ على أن يحطّ قدمه فيه ما لم يكن فحلاً».

وانطلقت هَمْهمةٌ تحيّي هذا الكلام، والتفت انجامبا إلى أماليا من دون تفكيرٍ حين أحسّ بنشقتها المشكّكة، ولكنّه تابع.

- «أودّ أن أعرف فيم تجمّعكم هنا، فأنا أرى أنّ ميكا لم يمت بعد». والتفت نحو السّرير الذي تمدّد عليه ميكا.

- لقد تركنا أعمالنا، كلّنا، بسبب ما حدث له ولنا كلّنا.

- «نحن لسنا بِيضاً، فنحن نقلق لمشكلات الآخرين». قال نتي الذي أنزل ثوبه الآن: «لقد جئنا لنحزن معه». ودخل نوا الكوخ، وهو يحمل دمجانة خمرٍ على رأسه، وأُخرى في سلّةٍ على ظهره.

- «أين تذهب بهذا؟». صاح انجامبا غاضباً. أنزل نوا حمله وسط الكوخ لجلب كوبٍ.

- «هل تظنّ أنّك في بيت مُجنونٍ؟». صاح انجامبا، وقد استشاط غضباً: «أيّ نوع من البشر أنتم؟ ميكا يذهب كي يعطيه البِيض وساماً، وها هو يعود نصف ميتٍ، وأنتم تستغلّون الأمر كي تتطفّلوا عليه؟».

- «ليس تطفّلاً. لا. إنّها العادة». وتعالت الأصوات، ونهض نتي ليتحدّث باسم الجميع.

- «لقد رأينا ما يكفي من عجيزتك العجوز». هتف أحدهم.

وبدأ الجميع بالضّحك، حتّى انجامبا الذي نسي كم كان متأثّراً، وحين عاد الهدوء تابع نتي:

- «نحن هنا، كلّنا، مغيما، ولقد كان أسلافنا يتصرّفون كما نتصرّف الآن أمام المآسي. لقد كاد البيض يسلبوننا ميكا، ميكا الذي هو كلّ شيءٍ لنا، وهذا ليس بالشّيء الذي يحدث كلّ يومٍ، فإذا كنّا سنحزن على الأمر، فإنّنا سنحزن حسب التّقاليد التي تركها لنا أسلافنا».

- «نتي على حقّ». قال أحدهم.

- «نتي عاقل». أضاف آخر.

- لقد قال كلاماً مهمّاً.

- كلاماً ذا وزنٍ.

- فيه حكمة مغيما.

- سيتمادى نتي هذا.

طوى انجامبا ملابسه بقوّةٍ، وقلب عينيه، قطّب جبينه، ثمّ اندفع إلى رمحه الذي بدا ظاهراً تحت سريره، وطالب بالصّمت، وهو يدقّه ثلاث مرّاتٍ على الأرض.

- «الدّور لانجامبا». قال نتي.

- «صحيح». قال انجامبا: «ألم يعد هناك أوادم في الكوخ؟».

وبعد عدّة مرّاتٍ من السّعال ساد صمتٌ شاملٌ، ودقّ انجامبا الأرض مرّةً أُخرى، ثمّ ضرب بقبضته الرّمح ضربةً عنيفةً، واتّجهت العيون كلّها إليه.

- أنتم أوادم أم أولاد؟ لقد بدأت أشكّ بمن في هذا الكوخ.

لم يردّ أحدٌ على هذه الكلمات؛ لأنّ أحداً لم يعرف ما سيتلوها.

- «عوضاً عن أن نغضب للمعاملة التي عُومل بها ميكا عند البيض، لا تستطيعون أن تفكّروا بغير شُرب خمر البلح، والتّحدّث بالهُراء. إنّني أسأل نفسي: أيّ نوعٍ من البشر أنتم».

كان انجامبا يتحدّث بصوتٍ غير واضحٍ، وتعبير احتقارٍ على وجهه، لوَى طرف فمه إلى مستوى وجنته.

- «هذا اسمه كلام». قال نوا صاخباً. كان قد رشف رشفةً، وراح يلعق شفتيه.

- «أغلقْ هذه الدّمجانة التي بين ساقيك! أين تظنّ نفسك؟ آه؟ أين تظنّون أنفسكم؟». وراح انجامبا يوبّخهم: «هل عثرتم على جثة فيل؟».

- «على مهلك! على مهلك!». اندفع نتي. «هدّئ نفسك. الرّجُل العاقل لا يتحدّث هكذا».

- «أغلقْ فمك». صرخ انجامبا هادراً.

- «كيف يمكن أن تسمّي هذا رجُلاً». قال، وهو يشير بالإصبع الصّغرى ليده اليسرى نحو نتي الذي وقف مصعوقاً: «منذ عشرين عاماً وأنت جالسٌ أمام ميكا، ليس فقط لتشاركه وجباته، بل حتّى الُّلقم الصّغيرة التي تضعها الزّوج في فم زوجها. لم أكن أعرف بوجود المبوغسي في كلّ مكان. آهٍ يا أبي!».

مرّت رعشة غضبٍ على شفتيْ نتي. كان يُقعِي على قدميه، ولم يدرك ما يحلّ به. لقد تراجع إلى الوراء كي يستطيع أن يقفز إلى الأمام، ولكنّ ضخامة قدميه الفيليّتين ثبّتته إلى الأرض. أطلق صرخةً من حلقه، وبصق إلى الأمام. أثار هذا مَن حوله، وفيما كان انجامبا يرقبه بنظرةٍ ساخرةٍ أمسكته أذرعٌ قويّةٌ.

- «الآدميّ لا يتشاجر». هتف أحدهم: «ما هذا التّصرّف؟ منذ متى يتشاجر الأوادم؟ اخجلوا. اخجلوا».

- اِهدأ يا بول. لا تكن متهوّراً مثل قدّيسيك.

- آهٍ يا يسوع!

- «دعوني، دعوني». صاح نتي، وهو يحاول التّخلّص من الأيدي القويّة التي تمسك به: «دعوني».

- «دعوه. دعونا نرَ ما سيحدث». قال أحدهم مازحاً: «لقد رأينا ما يكفي من نتي هذا».

- «اِخرس أنت». قال آخر: «نتي لم يفعل شيئاً، زنجي الغابات هذا».

- «لا تسمعوا ما يقول». تدخّل آخر.

- ليست هذه عادتك يا بول. ما هذا الطّبع؟ مثل الفتيان. لا شكّ أنّ هناك الكثير ممّا يمكن أن تفعله.

- «دعوني». قال نتي، وهو يعارك: «لا أريد أن يدوس على قدمي أحد».

- «وجعلهم الرّبّ يهينونه ويضربونه حتّى الموت». أضاف إيسومبا.

- «طيّب. طيّب. سأفعل ما تشاؤون». قال نتي، وهو يلفّ يديه على صدره: «سأفعل ما تشاؤون». قدّم إليه أحدهم جوزة كولا، وقدّم إليه آخر سعوطاً، وأحسّ نتي بالزّهو للعناية التي يلقاها، فباعد قدميه، وجلس بطريقته المعهودة، بمؤخّرته العارية على الأرض، وعاد الهدوء إلى الكوخ.

هزّ انجامبا قدمه اليسرى، ونظر إلى الجماعة الجالسة حول قدميه: «أين هُم المحاربون الشّجعان، الرّجال الحقيقيّون، رجال الأيّام الغابرة؟ هل هؤلاء رجال؟». بصق وكاد بصاقه ينزل على قدمٍ سُحِبت بسرعةٍ. نظر إليهم بقرفٍ جعّد جانب وجهه: «نعم. هؤلاء النّاس كلّهم الّذين يتظاهرون بأنّهم جاؤوا للحزن مع ميكا ليسوا إلاّ كلاباً. كلّ شيءٍ مسوّغٌ للحصول على طعامٍ وشرابٍ من دون ثمن». وتنقّلت عينا انجامبا من جماعةٍ إلى أخرى حتّى استقرّتا على السّرير الذي يستلقي عليه ميكا، وتلاشى التّعبير عن وجهه: «ما أشدّ بؤسنا!» وأطرق برأسه.

وضاعت الكلمات في الهَمْهَمة السّائدة، فصاح: «أيّها المغيما! أيّها المغيما! هل تحوّلتم إلى بِيض؟ ألم تعودوا تتقبّلون نكتة؟». قال ذلك بابتسامةٍ ضعيفةٍ.

وانتعش الجميع. بدأ بول نتي بالضّحك أوّلاً ساخراً من قدميه الكبيرتين، ومن النّظرة في وجه انجامبا، ثمّ بدأوا يمازحون ميكا، وبدأ واغس يقلّد مشهد تقديم الوسام، وكيف أُخِذَ ميكا إلى السّجن كما تخيّلوا المسألة، وتتالت موجات الضّحك الصّاخب إلى أن قال أحدهم: «آه من هؤلاء البِيض»، وساد صمتٌ بعد هذه الكلمات، واكتست الوجوه جدّيّةً، وخَطا انجامبا متجاوزاً عدّة رؤوسٍ حتّى وصل إلى سرير ميكا.

- «وفّرْ علينا فحولتك الكاذبة». قال أحدهم: «لديّ فحولة رجُلٍ أبيض». قال ضاحكاً: «ولذا لا خطر عليك».

ضحك الجميع، وراحت النّكات تتردّد في كوخ ميكا من دون ترتيبٍ، أو نظام. حتّى ميكا نفسه تكوّر نحو الجدار ليفسح مجالاً لانجامبا الّذي رفع ثوبه ،وكاد يجلس على رأس ميكا، وتراجع ميكا مجدّداً، وقرقعت معدته، وتنهّد انجامبا بصوتٍ مرتفعٍ، وهو يمرّر الرّمح تحت السّرير.

وقال وهو يشير برأسه إلى الرّمح: «هذه الأشياء صارت غير نافعةٍ. غير نافعةٍ إطلاقاً».

- «فعلاً». قال بول نتي بوقار.

وهزّ انجامبا رأسه بحزنٍ، ومرّ بيده على وجهه، وراح يحدّق أمامه، وتمتم كأنّه يحلم: «حين أتذكّرهم هناك في زوريان أعرف أنّهم يحسدونني؛ لأنّ ميكا أخذ وساماً من زعيم البِيض».

وبدأ نتي يغطّ، وتتابع الغطيط من رأس نتي حتّى وصل إلى نوا في الطّرف الآخر من الكوخ، وقال انجامبا: «إنّني لا أعرف ما الّذي يريده منّا هؤلاء البِيض. لقد أخذوا كلّ شيءٍ من ميكا: أرضه، وولديه».

وبكت النّساء في جوقةٍ، وعندما عاد الهدوء تابع انجامبا: «كلّ شيء.. كلّ شيء..».

- «سأضع جمرةً في غليونك».([38]) قال نتي، وهو ينهض بمؤخّرةٍ ما تزال مكشوفةً: «ما الذي حصلنا عليه في هذه البلاد؟ لا شيء! لا شيء! ولا حتّى حرّيّة رفض عطاياهم». وجلس.

- «ولا حتّى حرّيّة الرّفض». قال إيسومبا: «ولا حتّى هذه الحريّة».

ودارت هذه الكلمات في الكوخ.

وقال إيسومبا: «لكن والله كان ما يزال أمام ميكا الأسلوب الذي يريهم رأيه في وسامهم. لا بدّ من أنّه كانت هناك وسيلة».

- «ما هي؟ ما هي؟». قال الجميع بنفاد صبر.

نهض إيسومبا، وتنحنح، ثمّ نظر حوله بتعبيرٍ من المرح الحاقد، وتملّكته ضحكةٌ، وأجابته ضحكاتُ الآخرين، وساد الهَرْجُ، ففرك إيسومبا جفنيه بأصابعه.

- «أعْجَبُ من أين تأتيني هذه الأفكار أحياناً، ربّما لأنّني مغرمٌ بأكل لحم السّلاحف». وابتسم، ثمّ بدا جادّاً، فاختفت الابتسامات عن الشّفاه كلّها.

-كان في وسع ميكا أن يُريهم ما الذي يستطيعون فعله بالوسام الذي سيعطونه له، وذلك بالذّهاب عارياً إلاّ من بيلا.([39])

قطّبت الوجوه. لم يفهم أحدٌ، وبدأ إيسومبا يضحك من جديدٍ، ولكنْ لم يشاركه في الضّحك أحدٌ. كان إيسومبا يهتزّ منفعلاً بالضّحك وسط الكوخ يضرب فخذيه، وامتدّت الأيدي وراء الآذان في محاولة التقاط الكلمات التي كان يبتلعها في شهقات ضحكه المتفجّر.

- «أ. أ. أ. أقول: إنّه كان يجب أن يلبس بيلا؛ لأنّه لو فعل لكان على زعيم البِيض أن ينحني ليضع الوسام على... على... على البيلا».

وانفجر الضّحك بقوّة الماء المغليّ، وخرج الضّحك الصّاخب من الكوخ، فأفزع الدّواجن التي كانت تنقّب عن الصّراصير، فأبعدها حتّى مقبرة الإرساليّة.

داخل كوخ ميكا، كان المشهد عجيباً. بدا الجميع كالمهووسين. كانوا يجأرون، ويضربون بأقدامهم، ويشهقون، ويلهثون، ويتوقّفون ليمسحوا عيونهم، ثمّ يعودون إلى الضّحك بصوتٍ أعلى، وعندما أُفرِغت أجسادهم من الضّحك انتقلوا إلى التّعليقات.

- «فكرةٌ مُدهشةٌ». قال انجامبا، وهو يحكّ فوق عينه بيده اليمنى: «أستطيع تصوّر المشهد، وزعيم البِيض عاجزٌ عن تثبيت الوسام على صدر ميكا العاري».

- «وعندها سينحني ليعلّقه. أين؟». سأل نتي، وهو يهتزّ من الضّحك، وتطلّع كلٌّ منهم إلى بطنه، وبدأت النّساء بالضّحك من جديدٍ.

- «من المؤسف أنّ فكرة كهذه لم تأتني». قال ميكا: «من المؤسف؛ لأنّني لم آكل سلحفاةً حين كنت شابّاً. وزّعوا الخمر على الجميع».

وفيما كانت الأحاديث تُتبادل صبّ نوا لنفسه كوباً ثانياً: «لا أريد أن يقول أحدٌ إنّني سمّمتك». قال، وهو يفرغ كأسه: «إيسومبا هو السّلحفاة بعينها». أضاف، وهو يقدّم كوب خمرٍ لميكا.

- «بعينها». قال ميكا، وهو يرفع الكوب إلى شفتيه.

ودار الكوب من يدٍ إلى يدٍ، وبدأ مستوى السّائل الحليبيّ في الدّمجانتين ينخفض بوضوحٍ.

وعندما فرغتا نهض ميكا، وقد أنعشه الخمر، وعلى الرّغم من أنّه لمْ يكن يحتاج إلى من يسنده إلاّ أنّ انجامبا أمسكه من يده، وتحرّكا نحو منتصف الكوخ.

- «فلتذهب النّساء إلى النّهر، والرّجال إلى أعمالهم. ليس في وسعنا فعل شيءٍ تجاه ما جرى. البِيضُ سيظلّون بيضاً دائماً». قال ميكا، وهو ينظر حوله مترنّماً بالشّفقة: «ربّما ذات يوم..».

- «أقسم بأمّي». قال انجامبا: «فأر اللّيل لا يحكي ما حدث له في اللّيل. النّاس يولدون ويموتون، وأقسم بأمّي. إلى أين ستنتهي بنا الدّنيا مع هؤلاء البِيض؟»

وخرج أصدقاء ميكا واحداً بعد الآخر. كلٌّ منهم يهزّ أسفل ثوبه، ويخرج إلى السّاحة، وهو يتمطّى، من دون أن ينظر إلى ميكا الذي كان جالساً على مسند الرّافية، ولم يبق إلّا نتي وانجامبا.

- «ماذا أقول لهم في زوريان؟» قال زوج أماليا، وهو يهزّ رأسه: «آهٍ يا أجدادي. غادرت قريتي، ورأسي مرتفعٌ حتّى السّماء. بعد ما جرى سوف...».

- «يكفي الآن». قال ميكا: «لا يهمّني ما ستقوله لهم» وبصق على الجدار.

ثمّ بين نوبتيْ تثاؤبٍ تابع كأنّه يتحدّث إلى نفسه:

- «لست الآن إلّا رجُلاً عجوزاً...».

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

فرديناند أويونو (1929-2010):

كاتبٌ، ودبلوماسيٌّ، وسياسيٌّ من الكاميرون. استلم عدّة مناصبَ وزاريّةٍ وحكوميّةٍ، وعمل سفيراً للكاميرون في دولٍ عديدةٍ، وكان رئيساً لمنظّمة اليونيسف عام 1977- 1978.

اشتُهر برواياته المناهضة للاستعمار الأوروبيّ لأفريقيا، التي تُعدّ من كلاسيكيّات الأدب الأفريقيّ في القرن العشرين.

تُرجم له إلى العربية:

الصبيّ الخادم.

الشيخ والوسام.

ممدوح عدوان (1941-2004)

كاتب سوري.

صدر له نحو تسعين كتاباً في: الشعر، والمسرح، والرواية، والنثر، والترجمات الأدبيّة والنقديّة، إضافةً إلى كتابته العديد من المسلسلات التلفزيونية، والمقالات الصحفية.

حمل إجازة في اللغة الإنكليزية من جامعة دمشق 1966، وعمل في الصحافة منذ 1964. درَّس مادة الكتابة المسرحية في المعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق منذ عام 1992.

استُضيف بصفته كاتباً زائراً في العديد من المؤسسات الأدبية العالمية، كما كُرِّم ونال عدداً من الجوائز في دول عربية عديدة.



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

(1) الرّافية: نوع من النّخيل المدغشقري الّذي تُستخدم أليافه في صنع السّلال والقبّعات وفي سقف البيوت. (المترجم).

[←2]

(2) جملة ختامية تقال في نهاية القداس الإلهي ضمن الطقوس الرومانية في الكنيسة الكاثوليكية لصرف الرعية. (م).

[←3]

(3) حاكم استعماري شهير.

[←4]

(4) جوزة شجرة الكولا وهي تحتوي على مادّة مخدّرة – المورد. (م).

[←5]

(5) Indaba: كلمة مستخدمة في عدة لغات إفريقية وتعني الاجتماع أو المنتدى.(م)

[←6]

(6) المقصود أنه ينتمي إلى قبيلة صهر ميكا.

[←7]

(7) يتحدّث القسّ هنا عن الثّواب والجنّة كوسام. (م).

[←8]

(8) المقصود به الخبز. (م).

[←9]

(9) سعدان إفريقي وآسوي ضخم الذّيل قبيح المنظر – المورد. (م).

[←10]

(10) أصل الفخذ. (م).

[←11]

(11) وصف للرّجل العاقل المحترم.(م).

[←12]

(12) تعبير يعني ما يعنيه لدينا شهر العسل.

[←13]

(13) المجلس الشّعبي والمضافة العامّة.(م).

[←14]

(14) الفترة بين أوائل تمّوز/يوليو وأوائل أيلول/ سبتمبر.(م).

[←15]

(15) ما يشبه المظّلة. ينشر الفلاّحون عليها مواسمهم لتجفيفها. (م).

[←16]

(16) المقصود بهذا الكوخ شيء شبيه بالمضافة العامّة الّتي يفتحها في أريافنا المختار أو أحد الأغنياء. (م).

[←17]

(17) الزّوج هنا بمعنى: الاثنان. (م).

[←18]

(18) حيوان بحري من رتبة الدلافين – المورد. (م).

[←19]

(19) هو نبات عطر اسمه الأنرجية. (م).

[←20]

(20) داء معد شبيه بالسّفلس كثير الانتشار في المناطق الاستوائيّة -المورد.(م).

[←21]

(21) ما يستخدم لتسهيل لبس الحذاء (كاراته). (م).

[←22]

(22) القبّعة العسكريّة الفرنسيّة. (م)

[←23]

(23) يافث أحد أبناء نوح الثّلاثة. (م).

[←24]

(24) بندقيّة قديمة. (م).

[←25]

(25) يقصد تخرجون موتى. (م).

[←26]

(26) المكان الذي تلقى فيه الجثث دون دفن. (م).

[←27]

(27) حيوان شائك كالقنفد من فصيلة القوارض. (م).

[←28]

(28) مادة سامة تستخرج من شجرة تحمل هذا الاسم. (م).

[←29]

(29) أهازيج. (م).

[←30]

(30) تعني مبلل بالطين باللغة البمبرية. (م).

[←31]

(31) الأحد الذي يسبق عيد الفصح وهو ذكرى نشر السعف في طريق المسيح وهو يدخل بيت المقدس مظفراً. ويسمى أحد الشعانين. (م).

[←32]

(32) يقصد طريق الموت. (م).

[←33]

(33) ثعبان كبير جداً. (م).

[←34]

(34) الأمر الّذي لا يقوم به إلاّ النّاضجون.

[←35]

(35) استخدم هنا كلمة «آدمي» الّتي يقصد بها الرّجل العاقل المحترم، والّتي تُستعمل في أريافنا، وجمعها الأودام. (م).

[←36]

(36) لمباركته وتطهيره.

[←37]

(37) أونوماتوبا: تسمية الأشياء أو الأفعال بمحاكاة أصواتها. (م).

[←38]

(38) أي سأطوّر فكرتك.

[←39]

(39) السّترة الّتي تُلفّ على الوسط.